

إصطفاء (آل عمران)

في ضوء القرآن الكريم

د. روضة بنت محمد بن أحمد بن ياسين

.....

ملخص البحث

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين إلى يوم الدين، وبعد:

فإن هذه الدراسة (اصطفاء آل عمران في ضوء القرآن الكريم) تهدف إلى كشف ذلك الشرف الكبير، وتلك الحكم التي أهلت هذه الأسرة الكريمة لتكون ضمن المصطفين من عند الله تعالى، وليتصدر اسمها قائمة سور القرآن الكريم، وقد قُسمت الباحثة هذا البحث إلى مقدمة وتمهيد، ومبحثين، وخاتمة، فالمبحث الأول في: (الاصطفاء وآل عمران) ويتضمن المختصين بالاصطفاء في سورة آل عمران، والمصطفين على العالمين، ومن بين الأنبياء، أما المبحث الثاني فكان في: (آل عمران وشرف الاصطفاء)، ويتضمن: اصطفاء امرأة عمران، وزكريا عليه السلام وزوجه، واصطفاء مريم وابنها عليهما السلام، وقد استخدمت في هذه الدراسة المنهج الاستقرائي، والمنهج التحليلي، وانتهت بنتائج عدة أهمها: أن الاصطفاء مرتبة لا يناها أحد إلا من اصطفاه الله تعالى، وأن شرف هذه الأسرة الكريمة يتجلى فيما كانت عليه من الدين الذي اصطفاه الله تعالى، ولما ظهر فيها من سلاله النبوة والصلاح التي توالدت بعضها من بعض، وأن الاستشعار بعظمة وقدرة الله تعالى على خرق العادة من موجبات استجابة الدعاء.

الكلمات (المفتاحية) الدالة عن البحث:

- المنذورة الأنثى.
- البشارة الكبرى.
- الاستعظام في الإنجاب.

* * *

المقدمة

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ۗ (١) قِيمًا لِيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِمَّنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴾ (١).

والصلاة والسلام على سيد الخلق وإمام الرسل سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن سار على نهجه واقتفى أثره.

وبعد:

فإنَّ علم التفسير من أشرف العلوم، حيث إنَّ موضوعه: كلام الله تعالى، والقارئ المتدبر يدرك أنَّ أهل العلم ذهبوا مذاهب عدة لكشف معانيه وإدراك بعض حقائقه، فمنهم من اعتمد في تفسيره على ما أثر عن النبي ﷺ والصَّحابة وكبار تابعيهم، ومنهم من لجأ إلى الفهم والاجتهاد والقول بالرأي، ممَّا نجم عنه ألوانُ عدة من التفاسير كالتفسير بالمأثور والتفسير بالرأي، مما تفرع عنه بما يعرف اليوم بالتفسير الإجمالي والتفسير التحليلي والتفسير الموضوعي (٢).

ومما وجهني الله تعالى إليه من خلال قراءتي للقرآن الكريم، ذكر مسمى تلك السورة (آل عمران) فجالت في خاطري العديد من التساؤلات: لم كانت هذه الأسرة هي الأسرة الوحيدة التي اختصها الله بالذكر في أسماء السور؟ وما هو الشرف الكبير الذي أهل هذه الأسرة ليتصدر اسمها في قائمة سور القرآن الكريم؟.

(١) سورة الكهف آية: ١ - ٢.

(٢) انظر: مناهل العرفان للزرقاني ١ / ٤٧٠، واتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر لفهد الرومي ٨٦٢/٣.

هذا ممّا دفعني أن أفرد ببحثي هذا للكشف عن بعض أسباب اصطفاء تلك الأسرة، وما خصها الله تعالى به من شرف. وقد جعلت دراستي مقتصرة على الآيات الواردة في سورة (آل عمران)، والتي تخص هذه الأسرة الكريمة، وبخاصة أنني لم أجد من خلال قراءاتي وتصفحي من أفرد تلك الأسرة بالحديث، أو التحدث عن شرفها ومكانتها في موضوع مستقل، وسياق متناغم كما ورد في هذه السورة، لأجل ذلك مضيت مستعينة بالله تعالى ثم عقدت العزم على الكتابة في هذا الموضوع وجعلت عنوانه (اصطفاء آل عمران في ضوء القرآن الكريم).

ثم انتهيت إلى تقسيم هذه الدراسة إلى مقدمة وتمهيد ومبحثين وخاتمة.

فأما المقدمة: فتشمل أهمية الموضوع وأسباب اختياره وخطّة البحث، ومنهج البحث، وطريقة السير فيه:

فأما التمهيد: فهو يشمل الحديث عن معنى الاصطفاء. وكيف يكون؟ ومرات ورود لفظه في القرآن الكريم، وذكر من هم المصطفين الوارد ذكرهم في القرآن؟.

وأما المبحث الأول فهو في: الاصطفاء (وآل عمران) ويتضمن ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: المختصون بالاصطفاء في سورة (آل عمران).

المطلب الثاني: الاصطفاء على العالمين.

المطلب الثالث: الاصطفاء والنبوة.

أما المبحث الثاني فهو في (آل عمران) وشرف الاصطفاء ويتضمن
ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: اصطفاء امرأة عمران.

المطلب الثاني: اصطفاء زكريا عليه السّلام وزوجه..

المطلب الثالث: اصطفاء مريم وابنها عيسى عليهما السّلام.

الخاتمة:

وضمّنتها ملخصاً لما توصلت إليه من نتائج هذا البحث، وأتبعته
ذلك ببعض التوصيات، ثمّ ذيلت البحث بفهرسين.

- فهرس المراجع.

- فهرس الموضوعات.

وقد كان منهجي في البحث:

أولاً: المنهج الاستقرائي: واستخدمته في تتبع شرح الآيات القرآنية،
وجمع بعض أقوال المفسرين، والوقوف على سيرة وترجمة بعض الأعلام.
ثانياً: المنهج التحليلي: واستخدمته في الوقوف على أوجه خلاف
بعض المفسرين وعرض أوقوالهم وحججهم للترجيح بينها أو الجمع إن
أمكن، وتوجيه بعض القراءات.

أما خطوات منهجي في البحث فكان كما يلي:

١. اقتصرت غالباً على ذكر القول الراجح من أقوال المفسرين إلا ما

يلزم من التفصيل لتوضيح وتقريب المعنى المراد.

٢. لم أتعرض لتحليل الآيات اللغوية والبيانية والبلاغية واللطائف إلا ما

ندر واقتضاه البحث.

٣. اقتصر على ذكر المعنى الإجمالي للآيات، للوصول إلى تحقيق الهدف من البحث.
٤. اقتصر على ذكر بعض القراءات الراجعة وتوجيهها.
٥. اعتنيت بترجمة الأعلام الوارد ذكرهم في البحث.
٦. تجنبت اختلافات المفسرين إلا ما اقتضته ضرورة البيان.
٧. اعتنيت بالمناسبة بين كل آية وسابقتها.
٨. اقتصر في ذكر الأحاديث على ما صحّ وثبت.
١٠. ذكرت كلمة (انظر) في الهامش لما أخذ بتصريف.
١١. ذكرت اسم الكتاب في الهامش بدون كلمة (انظر) لما أخذ بالنص.

أسأل الله تعالى أن يكون لي عوناً ونصيراً وصلّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

* * *

التمهيد:

ويشمل:

- معنى الاصطفاء.
- كيف يكون الاصطفاء؟
- مرات ورود لفظ الاصطفاء في القرآن الكريم.
- من هم المصطفون في القرآن؟.

* أولاً: معنى (الاصطفاء):

معنى الاصطفاء: الاختيار، يقال: اصطفيته، أي اخترته، وصفوة الشّيء: خالصه، كما أنّ الاختيار: تناول خيره^(١). والاصطفاء: تناول صَفْوِ الشّيء^(٢) وفيه ثلاث لغات: صَفْوَة، صِفْوَة، وُصْفُوَة، وهم من لا دنس فيهم من جهة الدّين والخيريّة^(٣).

وذكر الجرجاني في التعريفات:

الصّفوة: هم المتصفون بالصفاء عن كدر الغيريّة^(٤)، ويكون اصطفاء الله لخلقه باختياره لهم، وجعلهم صفوة خلقه، قال الزجاج^(٥): (وهذا تمثيل بما يرى، لأنّ العرب تمثل المعلوم بالشيء المرئي، فنحن نعين الشّيء الصّافي

إنّه التّقي من الكدر فكذلك صفوة الله من خلقه)

كيف يكون الاصطفاء؟

يكون اصطفاء الله تعالى لخلقه بأحد أمرين^(٦):

(١) الصحاح، فصل الصاد، مادة (صفا) والمصباح المنير كتاب الصاد، باب الصاد مع الفاء وما يتلثهما ٣٦٦/١، وبصائر ذوي التميز ١٧٨/٢.

(٢) المفردات في غريب القرآن، كتاب الصاد: ٢٨٣ مادة (صفو)

(٣) انظر معاني القرآن للزجاج ٣٩٩/١.

(٤) التعريفات للجرجاني / ١٣٤.

(٥) هو: إبراهيم بن السري بن سهل أبو إسحاق الزجاج، ولد ومات في بغداد عالم بالنحو واللغة، سمي بذلك لأنه كان يخرط الزجاج في شبابه (انظر: إنباه الرواه ١٥٩/١، وتاريخ بغداد ٨٩/٦).

(٦) انظر: المفردات في غريب القرآن: ٢٨٣ كتاب الصاد مادة (صفو).

- ١ - إمّا بإيجاده تعالى لخلقه صافياً من الشُّوب الموجود في غيره، كاصطفاء الملائكة.
- ٢ - أو يكون باختيار وبحكمة، كاصطفاء الرسل.

* ثانياً: مرات ورود لفظ الاصطفاء في القرآن:

قد ورد لفظ (الاصطفاء) في القرآن الكريم (١٥) خمس عشرة مرة، وذلك بألفاظ ومقامات مختلفة^(١) وهي كما وردت في المصحف الشريف على النحو التالي:

١ - فقال تعالى في حق إبراهيم عليه السلام: ﴿وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصّٰلِحِينَ﴾^(٢) أي: اخترناه واجتبيناها للدين ليكون نصيره في الدنيا^(٣).

٢ - ﴿وَوَصَّي بِهَا إِبْرٰهٖمَ بَنِيهٖ وَيَعْقُوبَ يٰبَنِيَّ اِنَّ اللّٰهَ اصْطَفٰى لَكُمْ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ اِلَّا وَاَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾^(٤).

والمراد: أن الله اختار لكم هذا الدين الذي عهدته إليكم واجتباه لكم^(٥).

٣ - وقال تعالى في شأن طالوت: ﴿قَالَ اِنَّ اللّٰهَ اصْطَفٰى عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِى الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ لَهُمْ...﴾^(٦).

(١) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن: ٤٠٩ باب الصاد مادة (اصطفى)

(٢) سورة البقرة آية: ١٣٠.

(٣) انظر: تفسير ابن جرير ٤٣٧/١، وتفسير ابن حاتم ٢٣٨/١.

(٤) سورة البقرة آية: ١٣٢.

(٥) انظر: تفسير ابن جرير ٤٣٨/١، وتفسير ابن حاتم ٢٣٩/١.

(٦) سورة البقرة آية: ٢٤٧.

والمعنى: أي اختاره عليكم^(١).

٤ - وقال تعالى في ذرية آدم عليه السلام: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا
وَعَالَ إِبْرَاهِيمَ وَعَالَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾^(٢).

والمعنى: إنَّه و الله أختار آدم ونوحاً و آل إبراهيم و آل عمران
لدينهم الذي كانوا عليه^(٣).

٥ - وقال جل شأنه في مريم عليها السلام: ﴿يَمْرِيْمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ
وَوَهَبَكِ﴾^(٤).

والمعنى: أن الله أختارك لطاعته^(٥).

٦ - وقال في شأنها أيضاً عليها السلام: ﴿وَأَصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ
الْعَالَمِينَ﴾^(٦).

أي: أختارك على نساء العالمين ففضلت بطاعتك^(٧).

٧ - وقال تعالى في شأن موسى عليه السلام: ﴿قَالَ يَمُوسَىٰ إِنِّي
أَصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَلِمِي﴾^(٨).

والمعنى: إنِّي أخترتك على الناس برسالاتي التي أرسلتك بها إليهم^(٩).

(١) انظر تفسير ابن جرير ٣٨٠/٢، وتفسير ابن أبي حاتم ٤٦٥/٢.

(٢) سورة آل عمران آية: ٣٣.

(٣) انظر: تفسير ابن جرير ١٥٦/٣، وتفسير ابن أبي حاتم ٦٣٤/٢.

(٤) سورة آل عمران آية: ٤٢.

(٥) تفسير ابن جرير ١٨٠/٣، ومعالم التنزيل ٤٦٣/١.

(٦) سورة آل عمران آية / ٤٢.

(٧) انظر: تفسير ابن جرير ١٨٠/٣، ومعالم التنزيل ٤٦٣/١.

(٨) سورة الأعراف آية / ١٤٤.

(٩) انظر: تفسير ابن جرير ٣٩/٩، وتفسير ابن أبي حاتم ١٥٦٢/٥.

٨ - وقال عزّ شأنه منكرًا على المشركين اعتقادهم: ﴿ أَفَأَصْفَكَ رَبُّكُمْ بِالْبَيْنِ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنثًا إِنَّكُمْ لَنَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴾ (٤٠) (١).

والمراد: هل أختاركم ربكم فخصّكم بالذكر من الأولاد، واتخذ لنفسه من الملائكة إناثًا وأنتم لا ترضوهم لأنفسكم؟ إن هذا خلاف الحكمة وما يقتضيه العقل (٢).

٩ - وقال تعالى: ﴿ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِبْرَاهِيمَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ (٧٥) (٣).

والمعنى: إن الله تعالى يختار من الملائكة رسلاً كجبريل وميكائيل وإسرافيل وغيرهم ممن كان يرسلهم على أنبيائه (٤).

١٠ - وقال جلّ وعلا أمراً نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم بعد أن قص عليه هلاك الأمم السابقة المكذبة: ﴿ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ ﴾ (٥).

والمعنى: قل يا محمد الحمد لله على هلاك كفار الأمم السابقة، أو على جميع نعمه، والسلام على من أختارهم الله واجتباهم من عباده عرفانا بفضلهم، وهم الأنبياء والرسل، وقيل: هم أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم، وقيل: هم أمته عليه الصلاة والسلام، وقيل: كل المؤمنين من السابقين واللاحقين، والأول هو الذي عليه الأكثر من المفسرين (٦).

(١) سورة الإسراء آية ٤٠/

(٢) انظر: تفسير ابن جرير ١٥ / ٦٤، ومعالم التنزيل ٣ / ٤٩٧

(٣) سورة الحج آية: ٧٥.

(٤) انظر: تفسير ابن جرير ١٧ / ١٤٢، ومعالم التنزيل ٤ / ١٣٣.

(٥) سورة النمل آية: ٥٩.

(٦) انظر: تفسير ابن جرير ٢٠ / ٣، وتفسير ابن أبي حاتم ٩ / ٩٠٦، ومعالم التنزيل ٤ / ٣١٣.

١١ - وقال جلّ ذكره: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾^(١).

والمراد: أن الله تعالى أعطى الكتب السابقة، وقيل: شهادة أن لا إله إلا الله، وقيل: القرآن الكريم. لمن أختار من عباده. وهم: أمة محمد صلى الله عليه وسلم، وقيل: جميع المؤمنين من كل أمة، وقيل: المصطفون من الأنبياء، وقيل: علماء الأمة من الصحابة ومن بعدهم، والراجح لدى أكثر المفسرين: هم أمة محمد ﷺ وَوَرَّثَهُمُ اللَّهُ كُلَّ كِتَابٍ أَنْزَلَ مِنْ عِنْدِهِ تَعَالَى.^(٢)

١٢ - وقال جلّ جلاله مُقَرِّعًا وَمُبَوِّخًا مُشْرِكِي قُرَيْشٍ: ﴿اصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ﴾^(٣) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ^(١٥٤).

والمعنى: ويحكم، كيف تحكمون أن الله اختار له البنات وأختار لكم البنين، فتجعلون له ما لا ترضونه لأنفسكم ؟^(٤).

١٣ - وقال تعالى ممجداً أنبيائه كإبراهيم وإسحاق يعقوب ﴿وَأَيُّهَا عِنْدَنَا لِمَنِ الْصُّلْبُ الْأَخْيَارِ﴾^(٥).

أي إن هؤلاء الذين ذكرنا اخترناهم لطاعتنا ورسالتنا إلى خلقنا^(٦).
١٤ - وقلّ جلّ شأنه موجهاً المشركين فيما ادعوه: ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ

(١) سورة فاطر آية / ٣٢.

(٢) انظر: تفسير ابن جرير ٨٨/٢٢، وتفسير ابن أبي حاتم ٣١٨١/١٠، والجامع لأحكام القرآن ٣٤٧/١٤، وأنوار التنزيل: ٥٧٨.

(٣) سورة الصافات آية / ١٥٣-١٥٤.

(٤) انظر: تفسير ابن جرير ٦٨/٢٣، والجامع لأحكام القرآن ١٣٤/١٥.

(٥) سورة ص آية / ٤٨.

(٦) انظر: تفسير ابن جرير ١١١/٢٣، والجامع لأحكام القرآن ٢١٧/١٥.

يَتَّخِذُ وَلَدًا لَأَصْطَفِيَ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿١﴾
 والمراد: لو شاء الله أن يتخذ ولداً — ولا ينبغي له ذلك — لاختار من خلقه ما يشاء (٢).

١٥ - وقال أيضا في توبيخ المشركين: ﴿أَمْ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَنَكُمْ بِالْبَنِينَ﴾ (٣).

والمعنى: هل اتخذ ربكم أيها الجاهلون مما يخلق بناتٍ، وأنتم لا ترضونه لأنفسكم، واختار لكم البنين؟ — وهو المقدس عن ذلك مكة — (٤).
 والمتأمل في جميع الآيات السابقة يجد أن لفظ الاصطفاء ورد بمعنى: الاختيار وخالص الشيء وخيره.

وبذلك نجد الارتباط — الواضح بين المعنى اللغوي للاصطفاء وبين ما ورد في القرآن لهذا المفهوم، حيث خصّ الله تعالى هذه المادة (صفو) لوصف كل ما هو مختار وخالص من الكدر.

* ثالثاً: المصطفون في القرآن الكريم:

والمتأمل في القرآن الكريم والمتدبر في آيات الاصطفاء — السابق ذكرها — والتي أتت بمعنى (الاختيار وأخذ ما صفا من الشيء) يستنتج أن هناك عشرة (٥) من الخلق خصّهم الله تعالى بلفظ (الاصطفاء) دون غيرهم.

(١) سورة الزمر آية / ٤٨.

(٢) انظر: تفسير ابن جرير ١٢٣/٢٣، ومعالم التنزيل ٤/٥.

(٣) سورة الزخرف آية / ١٦.

(٤) انظر: تفسير ابن جرير ٣٤/٢٥، ومعالم التنزيل ٩٤/٥ والجامع لأحكام القرآن، ٧٠١٦.

(٥) ذكرهم الفيروز آبادي ثمانية، بإسقاط آل إبراهيم وآل عمران، رغم أن آية سورة آل عمران تنص نصاً صريحاً على هذا الاصطفاء، انظر: الصائر ذوي التمييز ١٧٧/٢.

وهم حسب ترتيب ذكرهم في القرآن:

- ١- إبراهيم عليه السّلام.
 - ٢- آدم عليه السّلام.
 - ٣- نوح عليه السّلام.
 - ٤- آل إبراهيم^(١).
 - ٥- آل عمران^(٢).
 - ٦- مريم عليها السّلام.
 - ٧- موسى عليه السّلام.
 - ٨- جملة من الملائكة كجبريل وميكائيل وإسرافيل.
 - ٩- الأنبياء والرسل.
 - ١٠- أمّة محمد صلّى الله عليه وسلم، ومنهم خيارهم كصحابته رضوان الله تعالى عليهم
- ولما كان هذا البحث يخص بالذكر - اصطفااء آل عمران - فسوف نيسط القول عن اصطفاائهم في المباحث القادمة - إن شاء الله -.

* * *

(١) سيأتي الحديث عنهم مفصلاً.

(٢) سيأتي الحديث عنهم مفصلاً.

المبحث الأول الاصطفاء و (آل عمران)

ويتضمن ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: المختصون بالاصطفاء في سورة (آل عمران).

المطلب الثاني: الاصطفاء على العالمين.

المطلب الثالث: الاصطفاء والنبوة.

المطلب الأول

المختصون بالاصطفاء في سورة (آل عمران)

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ

﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾^(١)

والمتمم في هذه الآيات يدرك أن الله تعالى خصّ باصطفائه عدداً من خلقه نُجملُ الحديث عنهم في اللطائف التالية وهم:

* اللطيفة الأولى: آدم عليه السلام:

فآدم عليه السلام هو أوّل الخليقة^(٢)، والأب الأوّل للبشر^(٣) حيث ارتقى إلى هذه المرتبة بعد ما تنقل في مرتبة التوبة والإنابة فاصطفاه الله تعالى واجتباها، قال عزّ من قائل: ﴿ثُمَّ اجْنَبْهُ رَبُّهُ، فَنَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾^(٤). فكان هادياً مهدياً، ثم كان في ذريته جميع المرسلين والنبیین ممن شاء الله

(١) سورة آل عمران آية / ٣٣ - ٣٤.

(٢) وقيل سمي بذلك لكون جسده من واجهة الأرض، وقيل لسمرة في لونه، وقيل: لأنه خلق من عناصر مختلفة وقوى متفرقة، وقيل: سمي بذلك لما طيب به من روح الله المنفوخة فيه، وقد وردت في هذا أحاديث كثيرة.

انظر: المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني كتاب الألف: ١٤ مادة (آدم)، وكتاب العظمة لأبي الشيخ الأصبهاني ١٥٤٤/٥، وإعراب القرآن للنحاس ١/٣٦٨.

(٣) اقتباس من قوله صلى الله عليه وسلم في حديث الشفاعة (... فيأتون آدم فيقولون: يا آدم أنت أبو البشر..). رواه الإمام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه، انظر: صحيح مسلم كتاب الإيمان باب الشفاعة ٦٧/٣.

(٤) سورة طه آية / ١٢٢.

تعالى اصطفاؤه^(١). وقد ورد ذكره عليه السَّلام في القرآن (خمسةً وعشرين) مرةً^(٢).

* اللطيفة الثانية: نوح عليه السَّلام:

وأما نوح عليه السلام فهو نوح بن لامك بن متوشلخ، جدّه الأكبر أخنوخ وهو (إدريس) عليه السلام، ينتهي نسبه إلى (شيث بن آدم) عليه السلام^(٣)، وهو من أولي العزم من الرُّسل، ويعدّ الأب الثاني للبشرية^(٤) حيث انقرضت في عهده السلالات البشرية بسبب ذلك الطوفان، فانقرض منها من انقرض ونجا منها من نجا، قال عز من قائل:

﴿ حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾^(٥).

ثم كان أيضا في ذريته الكثير من المرسلين والأنبياء ممن شاء الله تعالى اصطفاؤهم، وقد ورد ذكره عليه السَّلام في القرآن في (ثلاثٍ وأربعين)^(٦) مرةً في مواطن مختلفة، وقد سميت باسمه سورة (نوح).

* اللطيفة الثالثة: اصطفاء آل إبراهيم.

فالآل في اللغة: يطلق على الأهل و الأولاد والأتباع^(٧).

(١) انظر: قصص الأنبياء لابن كثير: ٩.

(٢) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن باب الهمزة: ٢٤ مادة (آدم).

(٣) انظر: تفسير الخازن ١/٣٢٩.

(٤) انظر: فتح القدير ١/٣٣٣.

(٥) سورة هود آية / ٤٠.

(٦) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن باب النون: ٧٢٢ مادة (نوح).

(٧) انظر: الصحاح باب اللام، فصل الألف ٤/١٦٢٧ مادة (أول) والمصباح المنير كتاب

وأضاف الراغب الأصبهاني^(١):
 بأن لفظ (الآل) حُصِّصَ بالإضافة إلى أعلام الناطقين دون النكرات،
 ودون الأزمنة والأمكنة والمواضع، بل لا يضاف إلا إلى الأشرف
 والأفضل، فيقال مثلاً: آل الله وآل النبي^(٢) وآل السلطان، ولا يقال: آل
 الرجل، أو آل زمن القحط، أو آل مكة وغيره.
 وقد حصر الفيروز آبادي^(٣) لفظ (الآل) في القرآن في ثلاثة أوجه:
 الأول: بمعنى القوم والتبع لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النَّذِيرُ﴾^(٤).
 الثاني: بمعنى أهل البيت والحاضرين من أهل القوت والنفقة كما قال
 تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ لَّوَّطَيْنَاهُمْ إِسْحَارًا﴾^(٥).
 الثالث: بمعنى القرابة والذرية، لقوله تعالى: ﴿وَأَلِ إِبْرَاهِيمَ وَأَلِ
 عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾^(٦). وقوله: ﴿يَرْثِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾^(٧).
 وعلى هذا أرى - والله أعلم - بأن المعنى الجامع لتلك الأوجه

الألف، باب الألف مع الواو وما يثلثهما ٣٤/١ مادة (آل).

(١) هو: الحسين بن محمد بن المفضل، أبو القاسم الأصبهاني (بالباء أو بالفاء) الملقب بالراغب
 من أكبر حكماء وعلماء أهل أصبهان و سكن بغداد، مختلف في تاريخ وفاته. (انظر: سير
 أعلام النبلاء ١٨/١٢٠).

(٢) وآل النبي ﷺ هم: أقاربه، وقيل هم: المختصون بالعلم المتقن والعمل المحكم. (انظر: بصائر
 ذوي التمييز ٢/١٦٢).

(٣) هو محمد بن يعقوب بن محمد الشيرازي الفيروز آبادي أبو طاهر، من أئمة اللغة والأدب
 والتفسير، سكن (زبيد) وتولى قضاءها وتوفي سنة (٨١٧هـ) انظر: بغية الوعاة ١/٢٧٣.

(٤) سورة القمر آية / ٤١.

(٥) سورة القمر آية / ٣٤.

(٦) سورة آل عمران آية / ٣٣.

(٧) سورة مريم آية / ٦.

الثلاث هو ما يطلق على: أهل الشخص المختصين به اختصاصاً ذاتياً، إما بقرابة أو بموالاتة، كأهل بيته وأتباعه^(١). ومن هم على دينه^(٢).

● وأمّا عن خليل الرحمن (إبراهيم) فهو: إبراهيم بن تارح بن ناحور، بن ساروغ، وينتهي نسبه إلى سام بن نوح عليه السلام^(٣).

وعلى هذا يكون المراد من (آل إبراهيم) كما ذكره الزمخشري^(٤) هم: إسماعيل وإسحاق ويعقوب، ذلك أن إبراهيم عليه السلام جعله الله أصلاً لشعبتين: فجعل (إسماعيل بن إبراهيم) أصلاً للعرب، فيكون بذلك النبي محمد صلى الله عليه وسلم مشمولاً في هذا الاصطفاء، وجعل (إسحاق) عليه السلام أصلاً لبني إسرائيل وجعل فيهم النبوة والملك^(٥).

* اللطيفة الرابعة: اصطفاء آل عمران:

إن لفظ (عمران) المذكور في الآية قد ورد ذكره (ثلاث)^(٦) مرات في القرآن، مرة بإضافته إلى (آله)، لقوله في آية الاصطفاء: (وَأَلَّ عِمْرَانَ)^(٧)، وأخرى بإضافته إلى زوجته قال تعالى:

(١) انظر: المفردات في غريب القرآن، كتاب الألف مادة (آل).

(٢) انظر: تفسير ابن جرير ١٥٦/٣.

(٣) انظر: سيرة ابن هشام ٢/١.

(٤) هو: أبو القاسم محمود بن عمر بن محمد الخوارزمي الزمخشري. برع في الأدب والنحو واللغة، وكان داعياً للاعتزال. مات سنة (٥٣٨) انظر: طبقات المفسرين للسيوطي: ١٢٠.

(٥) انظر: الكشاف ٣٢٩/١.

(٦) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن، باب العين: ٤٨٣ مادة (عمر).

(٧) سورة آل عمران آية / ٣٣.

﴿ إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ ﴾^(١). وثالثة بإضافته إلى ابنته في قوله: ﴿ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ ﴾^(٢).

وقد اختلف المفسرون في نسبه:

فروى عن الحسن ووهب بن منبه^(٣) أنه: عمران بن ماثان، أو بن أشيم أو أشهم بن عمون أو أمون، ينتهي نسبه إلى سليمان بن داود عليهما السلام، وهو والد مريم عليهما السلام، وقيل: عن قتادة: إنه عمران بن يصهر، أو بن نصير، بن قاهث بن لاوي بن يعقوب بن إسحاق، وهو والد موسى وهارون.

وعلى هذا فقد اختلف المفسرون أيضاً في المراد (آل عمران)^(٤) فيكون المراد على القول الأول: هي مريم وابنها عيسى عليه السلام، و زكريا ويحيى وغيرهم ممن تبع توحيد الله من سلالة سليمان بن داود. وأما على الرأي الثاني: فيكون المراد بـ (آل عمران) هم موسى وهارون وغيرهم من سلالة يعقوب عليهم السلام.

والراجح والذي ذهب إليه الكثير من المفسرين هو الرأي الأول

(١) سورة آل عمران آية / ٣٥.

(٢) سورة التحريم آية / ١٢.

(٣) الحسن هو: أبو سعيد الحسن بن يسار البصري التابعي الفقيه الزاهد، إمام أهل البصرة ولد بالمدينة وسكن البصرة، توفي سنة ١١٠ هـ، (انظر: تذكرة الحفاظ ١/٧١).

وأما وهب: فهو وهب بن منبه الأبنائوي الصنعاني، أبو عبد الله مؤرخ كثير الإخبار عن أهل الكتاب، من التابعين ولد ومات بصنعاء عام ١١٤ هـ (انظر: سير أعلام النبلاء ٤/٥٤٤، وشذرات الذهب ١/١٥٠).

(٤) انظر: تفسير ابن جرير ٣/١٥٧، ومعالم التنزيل ١/٤٥٣، وتفسير ابن حاتم ٢/٦٣٥، والتفسير الكبير ٨/٢٢.

للدلالات التالية:

١. إنَّ الله تعالى بسط القول في قصة مريم وعيسى عليهما السَّلام في السورة (آل عمران) ولم يرد ذكر لموسى و هارون عليهما السَّلام فيها.

٢. ذكر تعالى في السورة قصَّة كفالة زكريا لمريم عليها السلام، وإنَّ ذكر زكريا بن آذن، وعمران بن ماثان كانا في عصر واحد، بينما كانت الفترة الزمنية بين عمران بن يصهر (أبو موسى و هارون) وبين عمران بن ماثان (أبو مريم) حوالي (١٨٠٠) ألف وثمان مئة سنة^(١).

٣. إنَّ الله تعالى بعد أن ذكر اصطفاء (آل عمران) أعقبه بذكر ﴿أَمْرَاتُ عِمْرَانَ﴾ في قوله: ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ﴾ وحيث إنَّ عمران بن ماثان هو أب مريم وجد لعيسى عليهما السَّلام، فكان صرف الكلام لهما من باب الأولوية^(٢).

والمتمل في هذه الدلالات يدرك أن جميع من ذكر يمثلون أهل عمران وقرابته وأتباعه، وبما أنهم على دينه و مذهبه. إذا فهم (آله). قال قتادة^(٣): (ذكر الله أهل بيتين صالحين، ورجلين صالحين فضّلهم على العالمين)^(٤).

(١) انظر: المراجع السابقة

(٢) انظر: إعراب القرآن للنحاس ٣٦٨/١، ومعالم التنزيل ٤٥٣/١، والكشاف ١٨٥/١

(٣) هو أبو الخطاب قتادة بن دعامة السدوسي البصري: مفسر حافظ ضريح أكمه أحفظ أهل البصرة عالم بالحديث ومفردات اللغة. مات سنة (١١٨هـ)، انظر: (سير أعلام النبلاء ٢٦٩/٥).

(٤) تفسير ابن جرير ١٥٧/٣.

يعني: (آل إبراهيم وآل عمران) و (آدم ونوح) عليهما السّلام،
وعن ابن عباس قال: "هم المؤمنون من آل إبراهيم وآل عمران، وآل
ياسين، وآل محمد ﷺ^(١)."

* * *

(١) تفسير ابن أبي حاتم ٦٣٥/٢.

المطلب الثاني

الاصطفاء على العالمين

﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾^(١).

المراد من الاصطفاء على العالمين:

• معنى قوله: ﴿عَلَى الْعَالَمِينَ﴾.

قيل: اصطفى دينهم على جميع الأديان لأنهم كانوا مسلمين، واختاره الفراء^(٢).

وقيل: فضّلهم على العالمين بالنبوة على الناس كلّهم كانوا هم الأنبياء الأتقياء المطيعين لربهم، واختاره ابن جرير الطبري وابن أبي حاتم والخازن^(٣) وغيرهم.

(١) سورة آل عمران آية / ٣٣.

(٢) انظر: معاني القرآن للفراء ٣٠٧/١.

والفراء هو: أبو زكريا يحيى بن زياد بن عبد الله ابن منظور الديلمي مولى بني أسد، وإمام الكوفيين في اللغة والنحو والأدب، انظر: بغية الوعاة / ٣٣٣/٢

(٣) تفسير ابن جرير ١٥٧/٣، و تفسير القرآن العظيم ٦٣٤/٢، و تفسير الخازن ٢٢٩ / ١

وابن جرير: هو محمد بن جرير بن يزيد الطبري، أبو جعفر، من كبار أئمة المفسرين، جمع من العلوم ما لم يشاركه فيه أحد من عصره توفي عام (٣١٠) انظر: طبقات المفسرين للداودي ١٠٦/٢.

وابن أبي حاتم هو: عبد الرحمن بن محمد بن أبي حاتم بن إدريس الرازي أبو محمد من كبار حفاظ المفسرين والمحدثين. انظر: (تذكرة الحفاظ ٤٦/٣). وأما الخازن فهو: علي ابن محمد بن إبراهيم الشبيحي علاء الدين عالم بالتفسير والحديث، من علماء الشافعية، كان خازنا لمكتبة بمدرسة في دمشق، توفي سنة (٧٤١هـ)، انظر: طبقات المفسرين للداودي ٤٢٦/١.

وأضاف الرازي^(١) بأن الله اصطفاهم على العالمين بتصفيتهم من الصفات الذميمة، وزينهم

بالخصال الحميدة، لقوله تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾^(٢) حيث إن الله تعالى خصّ رسله دون غيرهم من البشر بصفات وقوى جسمانية وروحانية لتأهيلهم.

والتأمل في جميع هذه الأقوال يدرك:

صحة جميع هذه المعاني، فيما أن الله تعالى اصطفى دين هؤلاء الأنبياء على جميع الأديان، فبذلك يكون الله تعالى فضلهم على العالمين بالنبوة لإبلاغ ذلك الدين، وبذلك لا بدّ وأن يكون جملة هؤلاء الأنبياء الذين اصطفاهم الله قد أصفاهم من الصفات الذميمة وزينهم بالخصال الحميدة لأنهم خيرة خلق الله تعالى.



(١) انظر: التفسير الكبير ٢٠/٨

والرازي هو: محمد الحسن البكري الرازي، أبو عبد الله توفي عام ٦٠٦ هـ الإمام المفسر، قرشي النسب أصله من طبرستان، ونسبته إلى الرى. انظر: طبقات الشافعية للسبكي ٣٣/٥.

(٢) سورة الأنعام آية / ١٢٤.

المطلب الثالث

الاصطفاء والنبوة

﴿ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾^(١).

ومعنى الذرية:

قيل مأخوذة من (ذراً) أي خلق^(٢)، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ

كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ﴾^(٣).

أي خلقهم وأوجد أشخاصهم، وذُرِّيَّةٌ على وزن (فَعْلِيَّة) وتطلق على صغار النمل، ثم أُطلق على صغار الأولاد والكبار معاً^(٤)، وقد يراد بها الواحد على نحو قوله تعالى على لسان زكريا عليه السلام: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾^(٥)، ويقصد به الولد الواحد، وقد يراد بها الجمع، نحو قوله تعالى: ﴿ذُرِّيَّةً مِّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾^(٦).

وقيل ذراً: أي نثر وسميت بذلك الذرية لأن الله تعالى ذرأها ونثرها على الأرض، كما يذرأ الزارع البذر^(٧)، وقيل مأخوذة من الذر،

(١) سورة آل عمران آية / ٣٤.

(٢) انظر: معجم الصحاح فصل الألف ٥١/١ مادة (ذراً).

(٣) سورة الأعراف آية / ١٧٩.

(٤) انظر: المفردات في غريب القرآن، كتاب النال: ١٧٨ مادة (ذراً).

(٥) سورة آل عمران آية / ٣٨.

(٦) سورة الإسراء آية / ٣.

(٧) انظر: المفردات في غريب القرآن، كتاب (الذال): ١٧٨ مادة (ذراً) وفتح القدير

لأنَّ الله تعالى أخرج الخلق من ظهر آدم عليه السلام حين أشهدهم على أنفسهم ونثرهم تعالى كالذر^(١).

● معنى قوله: ﴿بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ﴾:

ذكر عن قتادة: ﴿بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ﴾ أي في النية والعمل والإخلاص والتوحيد^(٢)، فتكون بذلك كلمتهم وملتهم وطريقتهم واحدة: في توحيد الله وطاعته^(٣)، وذكر البغوي أن المراد: بعضها من ولد بعض^(٤)، وقيل: بعضها من بعض في الموالاتة في الدين والمؤازرة على الإسلام^(٥)، وذكر الزمخشري: أن المراد: أن الأئمة أي (آل إبراهيم) و (آل عمران) هم ذرية واحدة متسلسلة، بعضها مُتَشَعَّبٌ من بعض، فموسى وهارون من عمران، وعمران من يصهر، ويصهر من قاهث، وقاهث من لاوي، ولاوي من يعقوب ويعقوب من إسحاق^(٦)، وأما عيسى فهو من مريم، ومريم من عمران، وعمران من ماثان، وماثان من سليمان، وسليمان من داود،

(١) روى عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: (أخذ الله الميثاق من آدم عليه السلام فأخرج من صلبه ذرية ذراها، فنثرهم نثراً بين يديه كالذر، ثم كلمهم، فقال: ألسن بربكم؟ قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين). أخرج الحاكم في المستدرک في کتاب الإيمان باب تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ ٢٧/١، قال الحاکم: هذا حديث صحيح الإسناد،

ولم يخرجاه، وقد احتج مسلم بكلثوم بن جبیر.

(٢) تفسير ابن أبي حاتم ٦٣٥/٢.

(٣) انظر: تفسير ابن جرير ١٥٧/٣، وتفسير ابن أبي حاتم ٦٣٥/٢.

(٤) انظر: معالم التنزيل ٤٥٣/١.

(٥) تفسير ابن جرير ١٥٧/٣.

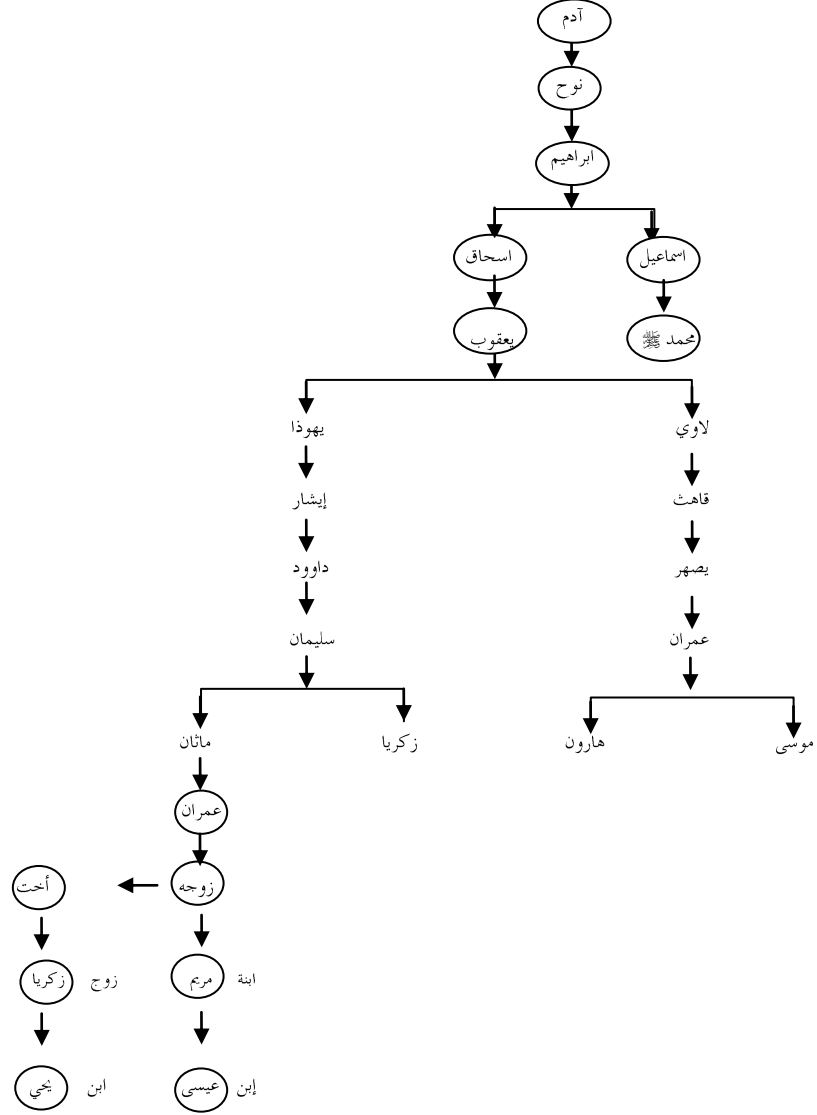
(٦) الكشف: ١٨٥/١.

وداود من إيشا، وإيشا من يهوذا، ويهوذا من يعقوب، ويعقوب من إسحاق، وإسحاق من إبراهيم، وكان الرسول ﷺ من آل إبراهيم عليه السلام (١) ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي سميعٌ لما يقوله الخلق، عليمٌ بما يضمرونه، أو سميعٌ لما تقوله امرأة عمران، عليمٌ بما تقصد (٢).

(١) انظر: تفسير ابن جرير ١٥٧/٣، والبحر المحيط ٤٣٦/٢.

(٢) البحر المحيط ٤٣٦ / ٢.

ذرية بعضها من بعض (١)



(١) ذكره ابن جرير عن ابن إسحاق ١٥٧/٣، وأبو حيان في البحر المحيط ٤٣٤/٢، والبغوي في معالم التنزيل ٤٥٣/٢، والبيضاوي في أنوار التنزيل ٧١/١، والزمخشري في الكشاف ٤٣٤/٢، والألوسي في روح المعاني ٣٣/١.

=

والمتملِّ والدارس لهذه الشَّجرة المباركة يدرك أنَّ بين كلِّ نبيٍّ
 وآخر، حِقْبَةٌ من الأزمنة، يتخلَّلها العديد من الآباء والأجداد منهم
 (الأنبياء) وما يعيننا في هذه الدِّراسة هو مَنْ ورد ذكر اسمه الشريف في
 (سورة آل عمران) وهم سبع شخصيات نوردتها هنا - حسب ترتيب
 ذكرها في أحداث ووقائع الآيات وهم: امرأة عمران، وزكريا ويحيى
 عليهما السَّلَام، وامرأة زكريا، ومريم وعيسى عليهما السَّلَام.

* * *

وقد ورد في كثير من التفاسير أن اسم امرأة عمران (حنة بنت فاقد) وأختها تسمَّى
 (أشيع بنت فاقد) - والله أعلم-. انظر: المراجع السابقة .
 فيكون (زكريا) زوج خالة مريم عليها السَّلَام وهي (أشيع)، وبذلك تكون مريم في
 حضانة خالتها ، وقيل: إنَّ زكريا زوج (أخت) مريم عليها السَّلَام، كما ورد فيما أخرجه
 الشيخان من حديث المعراج من قوله ﷺ: (إِذَا أَنَا بَابِي الْخَالَةَ عَيْسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَيَحْيَى ابْنَ
 زَكْرِيَّا). أخرجه البخاري في صحيحه كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة انظر: فتح
 الباري ٣٠٢/٦، ومسلم في صحيحه في كتاب الإيمان باب الإسراء برسول الله وفرض
 الصلوات ٢١٣/٢ واللفظ له.

المبحث الثاني

(آل عمران) وشرف الاصطفاء

وتحتة ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: اصطفاء امرأة عمران.

المطلب الثاني: اصطفاء زكريا عليه السّلام وامرأته.

المطلب الثالث: اصطفاء مريم وابنها عيسى عليهما السّلام.

تمهيد

قال تعالى: ﴿ إِذْ قَالَتْ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذَرَيْتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَمْرِئُ أَنَّىٰ لَكَ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيحْيَىٰ مُصَدِّقًا لِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَاتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْرًا وَادُّكُرَ رَبِّكَ كَثِيرًا وَسَيِّحَ بِالْعِشِيِّ وَالْإِبْكَرِ ﴿٤١﴾ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَأَصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَأَسْجُدِي وَأَرْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَقْلَمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسْسَنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ

الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخُرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيَّنَّتْ يَدَىٰ مِنَ التَّوْرَةِ وَلِأَجْلِ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَحِثُّكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ۗ ﴿٥٠﴾ إِنَّ اللَّهَ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾ ﴿١﴾.

فهذه (١٧) سبع عشرة آية تسرد لنا عجائب وحوارق هذه الأسرة، وتكشف لنا بعض أسرار ذلك الاصطفاء الذي شرفت به من بين العديد من الأسر الكريمة.

وأجد من خلال تأملي في تلك الآيات أن هناك جوانب مهمة في حياة أسرة (عمران)، أخذت الكثير من وقفات المفسرين، ومنها: أولاً: أن الكثير من الأنبياء والرسل والصالحين ظهوروا في هذه العائلة الشريفة (آل عمران) عبر عن ذلك بقوله تعالى: ﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

ثانياً: ما ظهر في هذه الأسرة من المعجزات والكرامات في الإنجاب، حيث بدأت بكرامة ولادة مريم عليها السلام من أمها (العاقرة) ويلي ذلك معجزة ولادة (يحيى) من (زكريا) عليهما السلام الذي بلغه الكبر وامرأته عاقرة^(٢)، ثم معجزة ولادة (عيسى) عليه السلام من أمه (مريم) عليها السلام من

(١) سورة آل عمران آية / ٣٥ - ٥١.

(٢) اقتباس من قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي يَكُونُ لِي عُلْمٌ وَقَدْ بَلَغَنِي الْكِبَرُ وَأُمْرَأَتِي﴾ سورة آل عمران آية / ٤٠، وذكر عن ابن عباس وغيره أن يحيى وعيسى ابني خالة، ويحيى أكبر من عيسى وهو أول من آمن به وصدق بأنه كلمه الله وروحه. انظر: تفسير ابن جرير ١٧٢/٣، وغرائب القرآن للنيسابوري على هامش تفسير ابن جرير ١٩٠/٣.

غير (أب).

ثالثاً: توالي ظهور المعجزات والكرامات بين أفراد هذه الأسرة نحو كيفية ولادة وكفالة مريم، وكيف كانت ترزق؟ واستجابة الله تعالى لدعاء زكريا عليه السلام، وما أراه الله تعالى من آية حمل زوجته، وما بشر به تعالى من معجزات عيسى عليه السلام وغير ذلك.

* * *

المطلب الأول

اصطفاء امرأة عمران

﴿ إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ .

مما شرف الله به تلك الأسرة واصطفائها لأجله ما كان من نذر (امرأة عمران) ولذا عبّر تعالى بقوله: ﴿ إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ ﴾ فقوله: (إِذْ) يكون له معني الاصطفاء، والتقدير: (إن الله اصطفى آل عمران إذ قالت امرأة عمران) وقيل التقدير: (اذكر يا محمد) وقيل: متعلق بما قبله (والله سمعٌ عليم)^(١). و﴿ امْرَأَتُ عِمْرَانَ ﴾ ذكر ابن جرير: هي (حنة بنت فاوود) وأن عمران وزكريا تزوجا بأختين فكانت (أم مريم) عند عمران بن ماثان و(أشيع) أختها عند زكريا عليه السلام ..

وفي تأملنا لهذه الآية ندرك عدة لطائف منها:

* اللطيفة الأولى: النذر وامرأة عمران:

كانت امرأة عمران قد كبرت فأمسك عنها الولد، فبينما هي في ظل شجرة نظرت إلى طائر يطعم فرخا له فتحركت نفسها للولد، ودعت الله تعالى أن يهب لها ذلك، فحملت بمريم، وتوفي عمران^(٢). عن عكرمة^(٣) إن امرأة عمران كانت عجوزاً عاقراً وكانت لا تلد فجعلت

(١) انظر: الدر المصون في علوم الكتاب المكنون ٢ / ٧١.

(٢) انظر: تفسير ابن جرير ٣ / ١٥٧، ومعالم التنزيل ١ / ٤٥٤، والكشاف ١ / ١٨٤، والتفسير الكبير ٨ / ٢٥، وتفسير ابن كثير ١ / ٥٣٧.

(٣) هو: عكرمة بن عبد الله البربري أبو عبد الله مولى عبد الله بن عباس، تابعي من أعلم الناس =

تغبط النساء لأولادهن، فقالت: إني نذرت شكراً لله إن رزقني ولداً، فأصدق به لله على بيت المقدس — وكانت هذه عادة بني إسرائيل في التقرب لله تعالى فيكون من سدنته وخُدَّامه^(١) ولذلك أتى التعبير بقوله: (لك) أي خالصاً لله تعالى وعبادته^(٢).

• قول امرأة عمران: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ

السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝﴾.

يشير إلى أن هذا النوع من النذر كان مشروعاً عند بني إسرائيل ومحصوراً على الذكور دون النساء لما يصيبهن من الحيض والأذى، فكان الرجل ينذر في ولده أن يكون خادماً في متعبده، أي من سدنته وعلى الأولاد وجوب الطاعة^(٣)، قال الخازن: لم يكن أحد من أنبياء بني إسرائيل ومن علمائهم إلا ومن أولاده محرراً لخدمة بيت المقدس^(٤).

ويفيد أن (امرأة عمران) أرادت أن تشكر الله تعالى على نعمة الإنجاب، فنذرت لله تعالى — دون غيره — نذراً مطلقاً. بصرف النظر عن كون الجنين ذكراً كان أم أنثى — ولذا أتى التعبير بقولها: (ما) أي الذي في بطني من الحمل حيث إن ما في بطنها مبهم^(٥).

وقيل: أتى التعبير هنا على سبيل الرجاء منها أن يكون ذكراً، أو

بالتفسير توفي سنة ٦٤٥ هـ. (انظر: تهذيب التهذيب ٧/٢٦٣).

(١) انظر: تفسير ابن جرير ٣/١٥٨، والبحر المحيط ٢/٤٣٨.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن ٤/٦٧.

(٣) انظر معاني القرآن للزجاج ١/٤٠٠، والجامع لأحكام القرآن ٤/٦٦، والتفسير الكبير ٨/٢٥.

(٤) تفسير الخازن ١/٢٢٩.

(٥) انظر: تفسير ابن جرير ٣/١٥٨، وتفسير ابن أبي حاتم ٢/٧٢ والدر المصون ٢/٧٢.

على الفرض والتقدير. والجامع بين القولين: إني جعلت ما في بطني حبيسا لخدمة بيت المقدس^(١) تقرباً لله دون غيره لا ينتفع بشيء من أمور الدنيا، ولذا أتى التعبير هنا بقولها: (لك) أي لعبادتك.

ثم بينت (حال) هذا المنذور بقولها: (محرراً)، قيل: مأخوذ من الحرية التي هي ضد العبودية والرق^(٢)، وقيل مأخوذ من التبتل والانقطاع من مشاغل الدنيا إلى التفرغ لعبادة الله^(٣). والواضح أن هذا هو الأرجح - والله أعلم - لأن عمران وامرأته يتمتعان بالحرية، ثم جاء الترجي والتمني والدعاء بقولها: ﴿فَتَقَبَّلَ مِنِّي﴾ والتقبل: هو أخذ الشيء على وجه الرضا به ومقابلته بالجزاء والثواب^(٤).

ولا يكون هذا التعبير إلا لمن لا يريد بفعله إلا الله تعالى. ومع هذا الرجاء فإن (امرأة عمران) دعت الله تعالى تقرباً له بأسمائه الحسنى وصفاته العليا بقولها: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ أي سميع لتضرعي ودعائي وندائي، عليم بما في نفسي ونيتي وبما كان وما سيكون، حيث إن الله تعالى عليم بنيتها حين ناجت ربها وهي حامل بنذر ما في بطنها لخدمة بيت المقدس^(٥).

(٨) انظر: البحر المحيط ٤٣٧/٢، وتفسير غرائب القرآن على هامش تفسير ابن جرير ١٨٦/٣.

(٢) انظر: تفسير ابن جرير ١٥٨/٣، والتفسير الكبير ٢٥/٨، والجامع لأحكام القرآن ٦٦/٤.

(٣) انظر: المفردات في غريب القرآن، كتاب الحاء: ١١١ مادة (حر).

(٤) انظر: المفردات في غريب القرآن: ٣٩١، كتاب القاف مادة (قبل) والتفسير الكبير ٢٦/٨.

(٥) انظر: التفسير الكبير ٢٦/٨، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير ٥٣٨/١.

وهذا من الواضح تعليل لاستدعاء قبول الدعاء، ورجاء الإجابة تفضلاً منه وإحساناً، وقصر صفتي (السَّمْع والعِلْم) عليه تعالى لغرض اختصاص دعائها، وانقطاع حبل رجائها عما عداه سبحانه بالكلية مبالغة في الضراعة والابتهال^(١).

* اللطيفة الثانية: الشعور بالحسرة وخيبة الأمل:

قال تعالى موصفاً حال (امرأة عمران) حين ولادتها: ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيدُهَا بِلَكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾.

● فقلوه: ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ﴾ أي فلما وضعت البنت أو الجارية أو المنذورة أو الأنثى أو النفس أو النسمة ونحو ذلك^(٢) فأتى اعتذارها لله تعالى على نذرها المطلق بقولها:

﴿إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ﴾ فذَكَرَتْ ذَلِكَ لَا عَلَى سَبِيلِ الْإِعْلَامِ وَإِنَّمَا عَلَى سَبِيلِ الْعِذَارِ، مصحوباً بذلك بالشعور بالحسرة وخيبة الأمل على ما فاتها من تحقيق النذر الذي كانت ترجوه.

● ثم جاءت مواساة الله تعالى (لامرأة عمران) بتعظيم تلك الأنثى ورفع قدرها وشأنها على الذكور، حيث قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ﴾.

وردت قراءة جمهور القراء بسكون التاء في قوله: ﴿بِمَا وَضَعْتَ﴾.

(١) روح المعاني ٣/١٣٤.

(٢) انظر: تفسير ابن جرير ٣/١٥٩، وتفسير ابن أبي حاتم ٢/٦٣٦، وتفسير البغوي ١/٤، والكشاف ١/١٨٦.

وبذلك تكون الجملة - اعتراضية - من كلام الله تعالى واقعةً بين كلام امرأة عمران، فأتى خطاب الله تعالى لها على جهة التّعظيم والتّفخيم لتلك الأنثى التي وَضَعَتْ، لما تَعَلَّقَ بها من عظام الأمور حيث يجعلها الله تعالى وولدها آيةً للعالمين.

وقرأ ابن عامر وغيره بضم التاء (وضعت) فتكون من جملة كلام (امرأة عمران) مشعراً بالتسليم والخضوع لله، والترتبه له أن يخفى عليه شيء، وقرأ ابن عباس بكسر التاء في (وضعت) فتكون الجملة من كلام الله تعالى^(١).

● وعلى قراءة الجمهور وقراءة ابن عباس يأتي بعد ذلك قول الله تعالى مخبراً عما سيكون من علو شأن هذه الأنثى فقال:

﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَى﴾ فالتعبير هنا مُشْعَرٌ بتفضيل تلك الأنثى على الذكر^(٢).

والمعنى: والله أعلم بما وضعت فليس الذكر الذي طلبت كالأُنثى التي وَضَعَتْ، حيث إنَّ الذكْرَ لا يعدو أن يكون خادماً للكنيسة، أما هذه الأنثى التي وضعت فسيختصُّها الله تعالى بما لم يخصَّ به أحداً من البشر فأمرها عظيمٌ وشأنها فخيم.

● ثم سجلت (امرأة عمران) إصرارها على تنفيذ ما نَوَّهَتْه من خدمة نذرها لبيت المقدس فإنَّها وإن كانت مولودتها أنثى ولم تكن جديرةً

(١) انظر: معاني القرآن للفراء ٢٠٧/١، ومعاني القرآن للزجاج ٤٠١/١، وإعراب القرآن للنحاس ٣٧٠/١، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٦٧/٤. والكشاف ١٨٦/١.

(٢) أورد ابن كثير بأن تلك الآية مشعرة بتفضيل الذكر على الأنثى والمراد: أن الذكر ليس كالأنثى في القوة والجلد والعبادة وخدمة المسجد ولم يذهب إلى هذا الرأي كثير من المفسرين. انظر: تفسير القرآن العظيم ٥٣٨/١.

بسدانة ذلك المعبد، فلتكن من العابدات المتقربات إلى الله تعالى وإن كان بالاسم فقط، فقال تعالى على لسان (امرأة عمران): ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾.

ومعنى (مريم) بالعبرية أي: العابدة والخادمة للرب^(١) وأرادت بذلك التقرب لله والتضرع إليه، والتفاؤل لها بالخير والصلاح بأن يكون فعلها مطابقاً لاسمها وأن يفضلها الله على إناث الدنيا.

● ثم أتى تأكدها على تصديق ظنها بعصمة الله تعالى لمولودها (مريم) فطلبت تبعاً أن يحميها الله ويجيرها وولدها من الشيطان الرجيم وإغوائه بقولها: ﴿وَإِنِّي أَعِيدُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ وأصل العوز: الالتجاء إلى الغير و التعلق به^(٢).

والمراد بـ (ذريتها) هو عيسى عليه السلام، لما ورد من حديث النبي صلى الله عليه وسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال صلى الله عليه وسلم: (ما من مولود يولد إلا نخسه الشيطان، فيستهل صارخاً من نخسه إلا مريم وابنها)، ثم قال أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم ﴿وَإِنِّي أَعِيدُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾^(٣).

والمراد أن الشيطان المرجوم المبعد الملعون^(٤)، يطمع في إغواء كل مولود بحيث يتأثر منه، إلا مريم وابنها عيسى عليه السلام، فإن الله عصمهما ببركة استعاذة

(١) انظر: تفسير غرائب القرآن على هامش تفسير ابن جرير ١٨٧/٣.

(٢) المفردات في غريب القرآن كتاب العين: ٣٥٢ مادة (عوز) والجامع لأحكام القرآن ٦٨/٤.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب التفسير باب (وإني أعيدها بك وذريتها من الشيطان الرجيم) انظر: فتح الباري ٢١٢/٨.

(٤) تفسير ابن أبي حاتم ٦٣٨/٢.

(والدتها) لهما^(١) فكانا لا يصيبان الذنوب كما يصيبها بنو آدم.

* اللطيفة الثالثة: قبول المندورة الأثني:

قال تعالى: ﴿فَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا

كَمَا دَخَلَ عَلَيْهَا

زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَمْرِئُ أَنَّى لَكَ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ

يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ

حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ (٢).

ذكر ابن جرير والنيسابوري^(٣) أن الضمير في قوله: ﴿فَقَبَّلَهَا﴾ إمَّا أن يعود إلى (امرأة عمران) وهذا الظاهر بدليل استمرارية الخطاب عنها سابقاً، وإما أن يكون مرجع الضمير إلى (مريم عليها السلام) والواضح والله أعلم: أنه هو القول الراجح وذهب إليه كثير من المفسرين^(٤)،

(١) قال قتادة: (كل مولود يطعن الشيطان في جنبه حين يولد غير عيسى وأمه جعل بينهما حجاب فأصابته الطعنة الحجاب ولم ينفذ لهما منه شيء) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٦٨/٤.

(٢) سورة آل عمران آية / ٣٧.

(٣) انظر: تفسير ابن جرير ١٨٧/٣، وتفسير غرائب القرآن على هامش تفسير ابن جرير ١٨٧/٣.

والنيسابوري هو: محمود بن أبي الحسن النيسابوري، أبو القاسم نجم الدين مفسر لغوي، انظر: بغية الوعاة: ٣٨٧.

(٤) انظر: تفسير ابن جرير ١٨٧/٣، وتفسير ابن حاتم ٦٣٨/٢، ومعالم التنزيل ٤٥٥/٣، والكشاف ١٨٧/١، والتفسير الكبير ٢٨/٨، والبحر المحيط ٤٤١/٢، والجامع لأحكام القرآن ٦٩/٤، ولباب التأويل ٢٣٠/١، أنوار التنزيل: ٧٢، وتفسير ابن كثير ٥٣٩/١.

حيث إنَّ جُمْلَةَ خطاب ما بعد الضَّمير في قوله: (فتقبلها) يشير إلى أنَّ المراد مريم عليها السَّلَام، وقد جاء وصف ذلك القبول بقوله: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ حَيْرٌ﴾ وللمفسرين عدَّة معاني في المراد من قوله: (بِقَبُولٍ حَسَنٍ) فَصَّلَ القول فيها الإمام الرازي^(١) وذكر أربعة أوجه للقبول الحسن:

أولاً: أنَّ الله تعالى لما علم تضرُّع (امرأة عمران) قبلَ منها (مريم) مكانَ الذكر المنذور

خدمتها للكنيسة، على الرغم من حال صغرها وعدم قدرتها على الخدمة.

ثانياً: أنَّ الله تعالى تولَّاهَا وتكفَّل بتربيتها والقيام بشأنها بتدبير من لدنه.

ثالثاً: أنَّ الله تعالى عصم مريم وابنها عيسى عليه السلام من مس الشيطان استجابةً لدعوة (امرأة عمران).

رابعاً: أنَّ مريم تكلمت في صباها كما تكلم المسيح ولم تلتقم ثدياً قط، وإنَّ رزقها كان يأتيها من الجنة، والذي رجَّحه الكثير من المفسرين، الرأي الأوَّل والثَّاني^(٢)، ويبدو والله أعلم: أنَّ الرأي الثالث يندرج ضمن تولية الله تعالى لها، والتكفل بتربيتها والقيام بنشأتها، أمَّا الرأي الرابع: فلم أجد من المفسرين من ذكر تكلم مريم عليها السَّلَام في صباها، كما أنَّ القول بأنَّ رزقها كان يأتيها من الجنة فقد يكون مندرجاً ضمن حسن الكفالة والتربية، ولذا أتى عقبها بقوله:

(١) انظر: التفسير الكبير ٢٨/٨.

(٢) انظر: معاني القرآن للزجاج ٤٠١/١ وإعراب القرآن، للنحاس ٣٧١/١.

• ﴿وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾.

وهذا الإنبات الحسن منه ما يتعلّق بالدين فتكون الصّورة مجازية، والمراد هنا: التربية الحسنة، والاستقامة على الطاعة والعبادة، و ذكر ابن عباس: لما بلغت تسع سنين صامت النهار وقامت الليل ولم تجر عليها أي خطيئة أو ذنب^(١)، وقيل: من الإنبات ما يتعلّق بالدنيا: فإنّ الله تعالى سوّى خلقه مريم عليها السّلام خلقه حسنةً، من غير زيادة ولا نقصان^(٢).

* اللطيفة الرابعة: كفالة مريم عليها السّلام:

• ثمّ أعقب ذلك الإنبات الحسن بقوله: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ .

والكفيل: من الكفالة: وفي الأصل مأخوذة من الضّمان، والكفيل: الضّامن^(٣)، ثم استعير المعنى للضم والأخذ، فيقال كفّل يكفّل، وكفّل يكفّل، كفالة وكفلاً، فهو كافل وكفيل. والكافل: الذي ينفق على إنسان ويهتم بإصلاح مصالحه.^(٤)

من هو: زكريا:

ورد ذكره في القرآن سبع مرات^(٥) في سورة (آل عمران، والأنعام، ومريم، والأنبياء) ودُكرت قصّته مفصّلةً في سورتَي (آل عمران، ومريم) وهو زكريا بن دان بن مسلم، ينتهي نسبه إلى سليمان بن داود،

(١) انظر: البحر المحيط ٤٤١/٢، الجامع لأحكام القرآن ٦٩/٤.

(٢) انظر: معالم التنزيل ٤٥٦/٣، والكشاف ١٨٧/١، والبحر المحيط ٤٤١/٢، وتفسير الخازن ٢٣٠/٢.

(٣) الصحاح ٥ / ١٨١١ فصل الكاف، مادة (كفل)

(٤) التفسير الكبير ٢٩/٨.

(٥) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن: ٣٣١ باب الزاي مادة (زكريا).

أبو يحيى التيميؒ من رسل بني إسرائيل، زوج خالة مريم عليها السلام^(١). وفي كفالة زكريا لمريم عليها السلام الكثير من الكرامات وخوارق العادات التي قصها علينا القرآن. وذلك ضمن قوله تعالى ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَفْلَمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾^(٢).

ويذكر أن (امرأة عمران) حين وضعت مولودتها يعني (مريم) بين لهم زكريا عليه السلام حينئذ أحقيته بكفالتها ليضمها إلى حالتها حيث كانت تحته، فتنازعا في أمر كفالتها، وتخاصموا فيمن هو الأولى والأحق بكفالتها؟ لأنها كانت ابنة إمامهم وسيدهم، حيث كان بنو ماثان رؤوس بني إسرائيل وكتبه الوحي — وفي كيفية الاقتراع كثرت الروايات بين أهل التفسير، وأشهرها: بأن بني إسرائيل اقترعوا بأقلامهم أيهم يكفل مريم، فقرعهم زكريا عليه السلام وبأمر من السماء، وكان القراع على أن يلقوا أقلامهم في الماء الجاري، وقيل سهامهم، فمن وقف قلمه ولم يجره الماء فهو حاضنها^(٣)، قال ابن عباس: اقترعوا فجرت الأقلام مع الجرية، وعال قلم زكريا الجرية فكفلها زكريا^(٤).

وقال ابن حجر: فجرت أقلام الجميع مع الجرية إلى أسفل، وارتفع

(١) انظر: تفسير ابن جرير ١٨٧/٣، ومعالم التنزيل ٤٥٦/٣، والكشاف ١٨٧/١، والبحر المحيط ٤٤١/٢، وتفسير الخازن ٤٣٠/٢.

(٢) سورة آل عمران آية ٤٤.

(٣) انظر: تفسير ابن جرير ١٦٤/٣. والجامع لأحكام القرآن ١٦٢/٣، وتفسير ابن أبي حاتم ٦٣٩/٢، ومعالم التنزيل ٤٥٦/٣ والبحر المحيط ٤٤٢/٢، والجامع لأحكام القرآن ٧٠/٤.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب الشهادات، باب القرعة في المشكلات، انظر: فتح الباري ٢٩٢/٥.

قلم زكريا فأخذها^(١).

● والمتأمل في هذه القصة يدرك بأن كفالة زكريا لمريم — عليهما السلام — ما هي إلا أمر من الله، تعالى بحيث تكون في حضانة خالتها، وهذا ما ترتبت عليه قراءة التشديد في قوله: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾. والمراد أن الله تعالى كفّل مريم لزكريا، أي ضمّها إليه وجعله كافلاً لها بأمر من عنده. وهذا بخلاف قراءة التخفيف (وكفّلها) أي أن زكريا ضمها إليه بإرادة منه^(٢).

● ثم توالى كرامات تلك المولودة فقال تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا﴾.

وكلما: تدل على التكرار. أي في كل زمان دخوله عليها وجد عندها رزقاً.

والمحراب: مشتق من الحرب كأن ملازمه يحارب الشيطان، وقيل من الحرب وهو: النصب والتعب الذي يلاقيه ملازمه. ويطلق على صدر ومقدمة المجلس وهو أرفع المواضع وأشرف المجالس وقيل: أصله في المسجد — ثم شبه صدر البيت به، وسمي بذلك لأنه موضع محاربة الشيطان والهوى^(٣)، وقيل: لا يكون محراباً إلا أن يرتقي إليه بدرجة، أو فيما ارتفع من الأرض.

(١) المرجع السابق ٢٩٤/٥.

(٢) معاني القرآن للفراء ٢٠٨/١، وإعراب القرآن للنحاس ٣٧٢/١، وتفسير ابن جرير ١٦٢/٣.

(٣) المفردات في غريب القرآن كتاب الحاء: ١١٢ مادة (حرب) وانظر: تفسير ابن جرير ١٦٦/٣، والدر المصون ٨٧/٢.

والذي يبدو أنه أقرب إلى معنى الآية: أن يكون الحراب هنا هو ما كان في المسجد، لدلالة بقية أحداث القصة عليه، كقوله تعالى: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ﴾.

● وتستمر تلك الكرامات، بل وفي كل وقت دخوله عليها. ﴿وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا﴾.

فعن مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير، وإبراهيم النخعي والضحاك وقتادة والسدي^(١) أن المراد بالرزق هنا: فاكهة الصيف في الشتاء وفاكهة الشتاء في الصيف، ورواية أخرى لمجاهد: وجد عندها علماً أو صحفاً فيها علم^(٢)، وقيل: كانت ترزق غير رزق بلادهم، وقال ابن عباس: كان عبناً في مكمل ولم يكن في تلك البلاد عنب، وذهب أكثر المفسرين إلى الرأي الأول^(٣).

(١) سعيد هو: سعيد بن جبير الأسدي أبو عبد الله، تابعي حبشي الأصل كان أعلم أهل الكوفة، أخذ العلم عن ابن عباس وابن عمر، توفي سنة ٩٥ هـ. (انظر: تهذيب التهذيب ١١/٤) وأما إبراهيم فهو: إبراهيم بن يزيد أبو عمران النخعي، من أكابر التابعين والمحدثين، فقيه أهل العراق، مات سنة ٩٦ هـ (انظر: طبقات القراء ٢٩/١).

والضحاك: هو أبو القاسم الضحاك بن مزاحم البلخي الخراساني كان مفسراً ومؤدباً توفي سنة (١٠٥ هـ) (انظر: ميزان الاعتدال ٤٧١/١). والسدي: هو إسماعيل بن عبد الرحمن، تابعي حجازي سكن الكوفة، صاحب التفسير والمغازي والسير توفي سنة (١٢٨ هـ). (انظر: النجوم الزاهرة ٣٠٨/١).

(٢) تفسير ابن أبي حاتم ٦٤٠/٢.

(٣) انظر: تفسير ابن جرير ٦٦/٨، ومعالم التنزيل ٤٥٧/٣، والكشاف ١٨٧/١ والبحر المحيط ٤٤٣/٢، والجامع لأحكام القرآن ٧١/٤، وأنوار التنزيل: ٧٢. قال المراغي: (ليس لدينا مستند صحيح من كتاب، ومسنند يؤيد هذه الروايات الإسرائيلية) تفسير المراغي ١٤٥/١.

• ثم حقق زكريا عليه السلام ذلك المبدأ العظيم (من أين لك هذا؟) أمام تلك الحارقة وتلك الكرامات لمريم عليها السلام فقال: ﴿قَالَ يَمْرُؤُا أَنَّى لَكَ هَذَا﴾. ومعنى (أتى) هنا تحتل أحد معنيين:

قيل: من أين لك هذا الرزق الذي لا يشبه أرزاق الدنيا؟ وهو آت في غير حينه والأبواب مغلقة عليك؟ فيكون السؤال عن الجهة والمكان، وهذا الذي عليه أكثر المفسرين^(١) وقيل: المعنى: السؤال عن الكيفية، والمراد كيف تمياً لك ذلك الرزق؟ وقد أغلقت عليك الأبواب؟ قد فرق بعض المفسرين بين استعمال (أتى وأين)^(٢): (فأتى) تأتي للسؤال عن الجهة، (وأين) للسؤال عن المكان.

• ثم أتى الجواب الحق: ﴿قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾. والمراد أن الله تعالى هو الذي ساقه إليها وأعطاهما^(٣) إياه فأى عجب في ذلك؟

• ثم أتى ذلك التعليل القاطع والمنطقي بقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ فيكون بذلك موقع الجملة:

- إما خبر من الله تعالى، بتفضله على عباده،^(٤) - وإما أن تكون

(١) انظر: تفسير ابن أبي حاتم ٦٤٠/٢، والكشاف ١٨٧/١، وتفسير الخازن ٢٣١/١

ومعاني القرآن للزجاج ٤٠٣/١، والبحر المحيط ٤٤٣/٢.

(٢) انظر: معالم التنزيل للبغوي ٤٥٧/١.

(٣) قال الزجاج: في معنى قوله: ﴿وَجَعَلْنَاهَا وَأَبْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ فمن آياتها: أنها أول امرأة قبلت في نذر في المعبد، ومنها أن الله أنشأ فيها عيسى من كلمة ألقاها إليها، ومنها أن الله تعالى غذاها برزق من عنده، وقيل: "إنها لم تلقم ثدياً قط" معاني القرآن وإعرابه ٤٠٤/١.

(٤) انظر: تفسير ابن جرير ١٦٧/٨.

تعليلية فتكون إمّا من كلام مريم عليها السّلام حيث إنّهُ لا عجب ولا استنكار بأن يُكْرَمَهَا اللهُ تعالى برزق من عنده.
- وإمّا أن تكون مستأنفةً من كلام زكريا عليه السلام ^(١).
والمعنى: أنّ الله يسوقُ رزقه إلى من يشاء من خلقه، بغير إحصاءٍ ولا عددٍ ولا مطالبة.

* * *

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن ٧٢/٤، والدر المصون ٧٩/١.

المطلب الثاني

اصطفاء زكريا عليه السلام وزوجه

قال تعالى: ﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ. قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۗ إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٨﴾ فَنادته الْمَلَكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَأَذْكُرَ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَتَجِبُ بِالْعِشْيِ وَالْإِبْكَرِ ﴿٤١﴾ ﴿١﴾.

قصّ الله تعالى كرامةً أخرى من كرامات آل عمران، ومواقف عظيمة ومتعددة سجلت في القرآن الكريم لتلك الأسرة شرفاً لها وسأعرض هذه المواقف في اللطائف التالية:

* اللطيفة الأولى: رجاء الولد:

عندما استشعر زكريا عليه السلام ما جاء في قوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ يُزْزِقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ - وهذا لا يعني أنه كان شاكاً في قدرة الله تعالى غير مجوّز وقوع الخوارق من عنده تعالى - بل كان من حسن أدبه عليه السلام مع الله تعالى يراعى الوقت الأنسب للطلب، حيث لا يدعو الإنسان إلّا ما هو معتاد الوجود. فقصّ تعالى حاله بقوله:

(١) سورة آل عمران ٣٨ - ٤١.

• ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ﴾ فجملة (هنالك) قيل: ظرف يستعمل (للمكان) ويأتي على نحو الإشارة (هذا)، وقيل هو: للزمان خاصة، وأمّا المكان فلفظه (هنالك). **والذي عليه الأكثر:** أنّه ظرفٌ يستعمل للمكان والزمان (اللام للبعد، والكاف للن خطاب) ^(١) **والمعنى:** عندما رأى زكريا في ذلك المكان (المحراب) وذلك الزمان ما رأى من كرامات وخوارق للعادات، عند مريم عليها السلام من وجود فاكهة الصيف في الشتاء و فاكهة الشتاء في الصيف، وما رأى من كرامة أخت زوجته من الإنجاب - على الرغم من أنّها (عاقرة) - عندها:

استشعر زكريا قدرة الله في ولادة العاقر من الشيخ الكبير، وأنّه لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، فطمع في أن يخرق الله تعالى تلك العادة في حقه فحصل له رجاء الولد ليخلفه نبياً في بني إسرائيل وليس لمجرد حُبّه للبنين، حيث وهن العظم منه، واشتعل رأسه شيباً ^(٢) وخشي انقطاع ميراث النبوة من آل يعقوب، وكما تعلّق به سبب آخر مانع للإنجاب وهو عُقر زوجته وشيخوختها.

• ف ﴿دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ﴾ عن عكرمة والسدي: فدخل المحراب وغلق الأبواب فصلى ثم دعا ربه سراً شاكياً حاله سائلاً الولد قائلاً:

• ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾.

(١) انظر: معاني القرآن للزجاج ٤٠٤/١، وإعراب القرآن للنحاس ٣٧٢/١، وتفسير غرائب القرآن على هامش تفسير ابن جرير ١٧٩/٣، والكشاف ١٨٨/١، والتفسير الكبير ٣٢/٨، والدر المصون ٧٦/٢.

(٢) اقتباس من قوله تعالى من سورة مريم: ﴿إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَأَشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا﴾.

(والهبة): (أن تجعل ملكك لغيرك بغير عوض)^(١).

وقد خصَّ زكريا الله تعالى بالطلب بتقديم (الجار والمجرور)، والمراد عطية من عندك لا من عند غيرك، لأنَّه لم يكن الطلب على الوجه المعتاد والأسباب المعهودة للإنجاب.

● قوله: ﴿ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾:

والمراد بالذرية هنا: الواحد لا الجمع، بدليل قوله تعالى في سورة مريم ﴿فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا﴾^(٢) ولم يقل أولياء. والمراد: أن زكريا عليه السَّلام طلب من الله إن يرزقه ولداً مباركاً صالحاً رضيعاً^(٣) ثم توسل لله تعالى بأسمائه وصفاته، على نحو ما توسلت به. (حنة بنت فاقود)، بأن يجيب الله دعاءه ولا يُحْيِب رجاءه بقوله: ﴿إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾.

* اللطيفة الثانية: البشارة بولادة يحيى عليه السَّلام:

● قوله: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾.

وقد ذهب المفسرون إلى أن المنادي هنا إمّا: جماعة من الملائكة، ومنهم من ذهب إلى أن المراد: جبريل السَّليلاً.

ورجح الرأي الأول كثير من المفسرين: حيث لا يجوز أن يحمل تأويل القرآن إلا على اللفظ الظاهر، وهو الجمع^(٤).

(١) المفردات في غريب القرآت: ٣٣، كتاب الواو مادة (وهب).

(٢) سورة مريم آية / ٥.

(٣) انظر: تفسير ابن جرير ١٦٨/٨.

(٤) انظر: تفسير ابن جرير ٦٨/٣، وتفسير ابن أبي حاتم ٦٤١/٢، والكشاف ١٨٨/١،

● ثم كانت تلك البشارة على حالة فضلى وهو ﴿قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ﴾ في مقام خلوته ومجلس عبادته وهو يصلي^(١)، بقوله: ﴿أَنَّ اللَّهَ يَبْشُرُكَ بِحَيٍّ﴾:

والتبشير: إخبارك المرء بما يسره من خير^(٢)، والأصل فيها لا تكون إلا في الخير، وإذا أتت

خلاف ذلك فتكون مجازاً على سبيل السخرية والاستهزاء على نحو قوله تعالى: ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾^(٣).

ويجى عليه السّلام: قد ورد ذكره في القرآن (خمس) مرات^(٤). وهو: يحيى بن زكريا بن دان، ينتهي نسبه إلى سليمان بن داود عليهما السّلام، وهو من أسباط يعقوب عليه السّلام، ولد قبل ولادة ابن بنت خالته (عيسى عليه السّلام)^(٥).

* اللطيفة الثالثة: صفات يحيى عليه السّلام:

وبعد أن بَشَّرَ اللهُ زكريا بولادة (يحيى) عليهما السّلام ذكر من

والتفسير الكبير ٣٤/٨.

(١) ذكر الشيخ محمد رشيد رضا في تفسير المنار (٢٩٧/٣) أن المراد بالصلاة هنا (الدعاء) والمعنى: إن زكريا نودي وهو قائم يدعو بذلك الدعاء (الوارد في سورة مريم) ولذا أتى التعبير (بالفاء) للتعقيب، فالصلاة دعاء والدعاء صلاة، ولذا استنكر على من استدل على ذلك بمشروعية الصلاة في جميع الديانات.

(٢) انظر: تفسير ابن جرير ١٨٥/٣، والمفردات في غريب القرآن: ٤٨ مادة (بشر).

(٣) سورة النساء آية / ١٣٨.

(٤) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن، باب الحاء: ٢٢٥ مادة (يحيى).

(٥) انظر: تفسير ابن جرير ١٧٢/٣، ومعالم التنزيل ٤٦٠/١، والبحر المحيط ٤٤٦/٢.

صفاته أربع صفات، والمتأمل فيها يدرك أنها ركائز النبوة:

• ﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ والمُجْمَعُ عليه لدى أهل التفسير أن المراد (بالكلمة) هنا هو: عيسى بن مريم، ويكون (يحيى) بذلك أول من آمن بعيسى (١).

• ﴿وَسَيِّدًا﴾ أي: شريفاً في العلم والعبادة، وقيل الحليم، وقيل: التقى، وقيل: الكريم على الله، وقيل: الفقيه العالم، وقيل: الذي لا يغلبه الغضب (٢).

والواضح أن جميع المعاني متقاربة، فمن كان سيِّداً في الدين لزم فيه التحلي بجميع الصفات من الشرف والعلم والحلم، والكرم والتقوى، وغيرها من الصفات التي تجعله سيِّداً ويفوق بها أقرانه.

• ﴿وَحَصُورًا﴾: الحصر في اللغة: الحبس، ورجلٌ حصورٌ: إذا حبس رفده ولم يخرج، فكان عليه السلام (حصوراً) لا يشتهي النساء (٣).

وللمفسرين في هذا الشأن قولان:

فمنهم من قال: بعدم قدرته عليه السلام على إتيان النساء لعجز لديه، ومنهم من قال: أنه كان يكف عنهن منعاً لنفسه عن الشهوة مع القدرة، تعففاً وزهداً (٤).

(١) انظر: تفسير ابن جرير ١٧٢/٣.

(٢) انظر: المرجع السابق.

(٣) انظر: المصباح المنير كتاب الحاء، باب الحاء مع الصاد وما يثلاثهما ١٥٠/١ مادة (حصره)، ومعاني القرآن للفراء ٢١٣/١.

(٤) انظر: تفسير ابن جرير ١٧٤/٣، وتفسير ابن أبي حاتم ٦٤٣/١، ومعالم التنزيل ٤٦١/١.

والواضح والله أعلم:

أنَّ المقام مقام مدح وعلى هذا فلا يكون الصَّواب إلَّا القول الثاني، لأنَّ المدح لا يكون إلا على أمرٍ مكتسبٍ يقدر فاعله على خلافه، لا على ما كان من أصل الخَلقة والجِبَلَّة، فضلاً عن أن هذا الرأي بعيدٌ كل البعد من جهة إلحاق هذه الآفة بالأنبياء عليهم السَّلام.

• ﴿وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾:

هذه أشرف الأوصاف وأعلاها.

والمعنى: سيكون من أصلاب الأنبياء، أو ناشئاً من الصالحين، لأنَّ للأنبياء قدراً من الصلاح لو انتقص لانتفت نبوتهم، فمن كان أكثر نصيباً من الصلاح كان أعلى قدراً^(١).

قال أبو حيان:

(فذكر أولاً الوصف الذي تنبئ عليه الأوصاف بعده وهو التصديق الذي هو الإيمان، ثم ذكر السيادة وهي الوصف الذي يفوق به قومه، ثم ذكر الزهادة وخصوصاً فيما لا يكاد يزهد فيه وذلك النساء، ثم ذكر الرتبة العليا وهي النبوة)^(٢).

* اللطيفة الرابعة: استعظام زكريا عليه السَّلام لإنجابه الولد:

﴿ قَالَ رَبِّ أَنِّي يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَأَمْرًا تِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ

(١) انظر: البحر المحيط ٤٤٩/٢، والتفسير الكبير ٣٧/٨.

(٢) البحر المحيط ٤٤٩/٢.

وأبو حيان هو: محمد بن يوسف بن علي الأندلسي، أبو حيان من كبار علماء اللغة والتفسير والحديث والتراجم، ولد في غرناطة، وتوفي بالقاهرة ٧٤٥ هـ، (انظر: بغية الوعاة: ١٢١).

اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿١﴾ .

● بعد أن تحقق دعاء زكريا، وبشّرهُ الله تعالى (بيحيى) عليه السّلام، وقع منه هذا الاستفهام والتعجب مخاطباً فيه الله تعالى بقوله:
﴿قَالَ رَبِّ ٱلظَّاهِرِ مَخَاطَبَةٌ لِّكَ زَكَرِيَّا ٱلَّذِي هُوَ ٱلْمَلَكُ ٱلْعَلِيِّ﴾^(٢) في حين أن البشارة أتته على لسان الملائكة.
والمتملّ في ذلك، يدرك أن ما دفع زكريا إلى ذلك هو التّعجل في إجابة الدعاء، وللمزيد من التضرع والجد في طلب الجواب على سؤاله من الله تعالى.

● فأتى استفساره بقوله: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ﴾؟

وفي الاستفهام هنا وجهان^(٣):

الأول: بمعنى (من أين)؟

والمراد هل يرزق هذا الولد من امرأته العاقر أم من امرأة أخرى؟

والثاني: بمعنى (كيف)؟ والمراد بأيّ سبب استوجب هذا

الغلام^(٤)؟ وفيه وفي زوجه من الأسباب ما تمنع حدوثه في العادة!

● فوصف حاله بقوله: ﴿وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾ أي

والحال أنّه أدركني الكبر والضعف والجهد، وعن أهل التفسير:

(١) سورة آل عمران آية / ٤٠ .

(٢) انظر: تفسير ابن أبي حاتم ٦٤٤/٢ .

(٣) انظر: المرجع السابق.

(٤) من الغلّمة: وهو شدة طلب النكاح، انظر: المفردات في غريب القرآن كتاب الغين: ٣٦٤

مادة (غلم)، والمصباح المنير ١٠٥/٢ كتاب الغين باب الغين مع اللام وما يثلثهما

١٠٥/٢ مادة (الغلام)، ولعل أتى التعبير به هنا دون لفظ (الولد) كما في قصة مريم عليها

السّلام: لأن زكريا عليه السّلام هو الطالب له. والله أعلم.

أنه كان يوم التبشير قد تجاوز التسعينيات، وقيل ابن مئة وعشرين سنة، فضلاً عن أن زوجه كانت عاقراً ومُسْتَةً^(١).
والعاقرة: من لا يُولد له رجلاً كان أو امرأة، مأخوذاً من العقر: وهو القتل، كأنهم تخيلوا فيه قتل أولاده^(٢) والعاقرة: يكون عقره من جهة النسب^(٣)، أي أن العقر أمرٌ لازمٌ له ولم يكن وصفاً طارئاً عليه^(٤)، ولذا وصف زكريا عليه السلام امرأته بقوله (عاقراً) فهو لازمٌ لها، ولو كان غير ذلك لقال عقيرة: أي بها عقرًا نحو كبراً من السن يمنعها من الولد^(٥)، والحاصل أن استفهام زكريا عليه السلام لم يكن شكاً في تلك البشارة أو استنكاراً لقدرة الله تعالى، بل كان استعظماً وتعجباً لقدرة الله تعالى على تلك النعمة لا لحض الاستبعاد والاستنكار^(٦).

● ورداً على ذلك الاستعظام أخبر تعالى عن عظيم قدرته، وسعة مشيئته وأنه لا يعجزه شيء بقوله: ﴿كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾^(٧).
فمضى شاء أمراً أوجد سببه، أو خلقه بغير سبب فلا تحوّل دون مشيئته شيء، ولذا أتى بـ (الكاف) للتشبيه^(٧).

والمراد: أن الله يفعل ما يشاء من العجائب، ومن ذلك إنشاء الولد

(١) انظر: التفسير الكبير ٣٨/٨، والكشاف ١/١٨٨، ومعالم التنزيل ٣/٤٦٢، وتفسير الخازن ٢٣٢/١.

(٢) الدر المصون ٢/٨٧، وانظر: المصباح المنير ٢/٧١ كتاب العين، باب العين والقاف وما يتلثهما مادة (عقره عقرا).

(٣) انظر: معاني القرآن للزجاج ١/٤٠٨.

(٤) انظر: البحر المحيط ٢/٤٥٠.

(٥) انظر: الجامع لأحكام القرآن ٤/٧٩، وفتح القدير للشوكاني ١/٣٣٨.

(٦) انظر: فتح القدير ١/٣٣٨.

(٧) انظر: البحر المحيط ٢/٤٥٠.

من شيخ عجوز، وامرأة عاقر فلا يعجزه شيء سبحانه وتعالى.

* اللطيفة الخامسة: شكر نعمة الولد:

﴿ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْرَمًا
وَأَذْكَرَ بَكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَرِ ﴾ (٤١) (١).

والمراد (بالآية) هنا: علامة يعرف بها صحة حمل زوجته، ولعل في غاية (زكريا) من طلب تلك (الآية) العديد من الأمور والغايات منها:
١. كي يتلقى تلك النعمة بمزيد من الشكر لله تعالى (٢). تعظيماً وإجلالاً له تعالى على تلك المنحة.

٢. للدلالة على صحة حمل زوجته (٣).

٣. لمجرد معرفته بوقت الحمل، لأن الحمل عادة لا يعرف في أيامه الأولى وهذا من باب استعجال سرور البشري (٤) ..

• فاستجاب الله تعالى لذلك الطلب بقوله: ﴿ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ
النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْرَمًا ﴾ .

وقد اختلف المفسرون في المراد بتلك (الآية) ومنعه العليل من الكلام وذلك على أقوال ثلاث:

أحدها: إن الله تعالى حبس لسان زكريا ثلاثة أيام عن خطاب الناس - دون آفة أو مرض - ولكن ينطق بالذكر والتسبيح.

(١) سورة آل عمران آية / ٤١

(٢) انظر: معالم التنزيل ٤٦٢/٣، وتفسير الخازن ٢٣٣/١ وأنوار التنزيل: ٧٣.

(٣) انظر: تفسير ابن جرير ١٧٦/٣، وتفسير ابن أبي حاتم ٦٤٥/٢، والبحر المحيط ٤٥١/٢.

(٤) انظر: التفسير الكبير ٤٠/٨.

الثاني: أن يأمر الله تعالى زكريا بأن يجبس لسانه عن مخاطبة الناس ثلاثة أيام، فيكون بذلك مأموراً، ولا يطلقه إلا بالذكر والتسبيح.
الثالث: أن الله تعالى حبس لسان زكريا ثلاثة أيام - عقوبةً منه - لكونه كان شاكاً في البشري -، فسأل الآية بعد المشافهة^(١)، والذي يبدو راجحاً - والله أعلم - من الأقوال الثلاث هو: القول الأول، ورجحه كثير من المفسرين^(٢) حيث:

١. إن الله تعالى بعد أن بين هذه الآية أعقبها بقوله: ﴿وَأَذْكُرُّنَاكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَرِ﴾. يعني في الأيام المقابلة لمنعك من مخاطبة الناس.

٢. إن هذا التأويل أولى وأقرب وأنسب في حق الرسل والأنبياء، لأنه يظهر لونا من الآيات الباهرات التي تتمثل في القدرة على الذكر والتسبيح مع العجز عن الكلام مع الناس، وذلك مع صحة الجسم وسلامة الجوارح.

• ثم أتى تعالى بذلك الاستثناء مشيراً إلى طريقة تعامله مع الناس بقوله: ﴿إِلَّا رَمَزًا﴾.

والرمز: الإشارة والإيماء، والمراد بها هنا: الإشارة بتحريك الشفتين باللفظ من غير إبانة بصوت، وقد يكون إشارة بالعينين، أو الحاجبين أو

(١) انظر: تفسير ابن جرير ١٧٧/٣، ومعالم التنزيل للبخاري ٤٦٣/١، روح المعاني للألوسي ١٥٠/٣.

(٢) انظر: معاني القرآن للزجاج ٤٠٩/١، وتفسير ابن جرير ١٧٧/٣، وتفسير ابن أبي حاتم ٤٦٥/٢، ولباب التأويل ٢٣٣/١، ومعالم التنزيل ٤٦٢/٣، والبحر المحييط ٤٥١/٢، وروح المعاني ١٥٠/٣.

الفم ونحوه^(١).

المراد: أن علامة ذلك الحمل ألا تقدر على تكليم الناس ثلاثة أيام، بل تعجز عن خطابهم، بحبس من الله تعالى، إلا بالإيماء والإشارة منك، ولكنتك لا تعجز عن ذكر الله وتسبيحه طوال تلك الأيام الثلاثة وطوال الوقت (يَالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ).

ووقت العشي: من زوال الشمس إلى الغروب، أمّا الإبكار: ما بين صلاة الفجر إلى وقت الضحى^(٢)، والمتأمل: يدرك أن الأمر بالتسبيح والذكر استغرق طوال ساعات النهار والليل.

* * *

(١) انظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج ٤٠٩/١، ومعاني القرآن للأخفش ٤٠٦/١.

(٢) انظر: تفسير ابن جرير ١٧٧/٣، وتفسير ابن أبي حاتم ٦٤٥/٢ ولباب التأويل ٢٣٣/١، ومعالم التنزيل ٤٦٢/٣، والبحر المحيط ٤٥١/٢، والمفردات في غريب القرآن كتاب العين: ٣٣٥ مادة (عشا) وكتاب الباء: ٥٧ مادة (بكر).

المطلب الثالث

اصطفاء مريم وابنها عيسى عليهما السلام

قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَأِكَةُ يَمْرِيمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴿٤٣﴾ يَمْرِيمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَأَسْجُدِي وَأَرْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٤٤﴾ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَقْلَمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرِيْمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ إِذْ قَالَتِ الْمَلَأِكَةُ يَمْرِيمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيْحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٦﴾ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٤٧﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٤٨﴾ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴿٤٩﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَاتٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلَقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنزِلُ الْأَكْمَامَ وَالْأَبْرَصَ وَأُخِي الْمَوْقِنَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٥٠﴾ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَلِأَجْلِ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِبَيِّنَاتٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا رَسُولَهُ ﴿٥١﴾ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٥٢﴾

وعند تأملنا في هذه الآيات نجد أن هناك العديد من الأمور التي جعلت مريم عليها السلام وابنها عيسى عليه السلام في مصاف المصطفين من أسرة آل عمران، وسوف أتحدث عنها في اللطائف التالية:

* اللطيفة الأولى: اصطفاء ان وطهر:

بعد أن ذكر الله تعالى العديد من أحداث (آل عمران) ومنها قصة زكريا ويحيى عليهما السلام شرع في بيان طهارة وفضل (مريم عليها السلام) حيث قال: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَأِيكَةُ يَمْرِيْمُ إِنَّ اللّٰهَ اصْطَفٰكَ وَطَهَّرَكَ وَاصْطَفٰكَ عَلَى نِسَاءِ الْعٰلَمِيْنَ ﴿٤٣﴾ يَمْرِيْمُ اقْنُيْ لِرَبِّكِ وَاَسْجُدِيْ وَاَرْكَعِيْ مَعَ الرَّاكِعِيْنَ ﴿٤٤﴾﴾^(١).

• أشار تعالى إلى اصطفاء (مريم عليها السلام) ضمن اصطفاء أسرة آل عمران فقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَأِيكَةُ﴾ والمعنى: واصطفى الله آل عمران إذ قالت الملائكة يامريم.

وكثير من المفسرين يقول: المراد بالملائكة هنا (جبريل عليه السلام)^(٢). قال الرازي^(٣): (وإن كان هذا عدولاً عن الظاهر إلا أنه يجب المصير إليه، لأن سورة مريم دلت على أن المتكلم مع مريم عليها السلام هو جبريل عليه السلام. وهو قوله: ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾^(٤)).

وهذا الخطاب ليس بشرع خُصَّتْ به عليها السلام، وإنما هو كرامة لها من عند الله تعالى أو يكون على سبيل الإلهام والنفث في الرُّوع، فذلك جازئ في حق أولياء الله تعالى، حيث إن الجمهور على أنه لم تستنبئ امرأة

(١) سورة آل عمران آية / ٤٢-٤٣.

(٢) انظر: غرائب القرآن للنيسابوري على هامش جامع البيان ١٩٥/٣، ومعالم التنزيل ٤٦٣/٣، والبحر المحيط ٤٥٥/٢، وتفسير ابن كثير ٥٤٣/١، وأنوار التنزيل: ٧٣.

(٣) التفسير الكبير ٤٢/٨.

(٤) سورة مريم آية / ١٧.

أبداً لقوله تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحَىٰ إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ ﴾^(١) وقد يكون إرهاباً لعيسى، أو معجزةً لذكرها للصلوة.

• قوله: ﴿ يَمْرِيْمُ ﴾:

هي مريم ابنة عمران بن ماثان، ينتهي نسبها إلى سليمان بن داود عليهم السلام (أم عيسى) ووالدتها: (امرأة عمران)^(٢) وخالتها: زوج كافلها (زكريا) وأم (يحيى) عليهم السلام^(٣).

ورد ذكرها في القرآن (٣٤) أربعاً وثلاثين مرةً في سورة (البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والتوبة، ومريم، والمؤمنون، والأحزاب، والزخرف، والحديد، والصف، والتحريم)^(٤).

• وقد ورد في حقها عليها السلام اصطفاؤه ان وطهر:

قال عز وجل ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَأَصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ

﴿٤٢﴾

فالمراد بالاصطفاء الأول:

إنَّ الله تعالى اختار مريم عليها السلام محررةً لخدمة الكنيسة، وخصَّها بالكرامات منذ ولادتها، ومعنى ﴿ وَطَهَّرَكِ ﴾ أي من الكفر والشك والذنوب، وسائر الأدناس^(٥).

(١) سورة يوسف آية / ١٠٩.

(٢) الوارد اسمها في كتب التفاسير (حنة بنت فاقود) انظر: تفسير ابن جرير ١٥٧/٣.

(٣) الوارد اسمها (أشيع بنت فاقود)، انظر: تفسير ابن جرير ١٥٧/٣.

(٤) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن: ٦٦٥، باب الميم مادة (مريم).

(٥) انظر: معاني القرآن للزجاج ٤١٠/١، وتفسير ابن جرير ١٨٠/٣، والبحر المحيط ٤٥٥/٢.

أما الاصطفاء الثاني:

المراد به أن الله اختارها على نساء العالمين بطاعتها وولادتها لعيسى عليه السلام^(١)، والمراد بـ ﴿نِسَاء الْعَالَمِينَ﴾ أي جميع نساء العالم، ومن المفسرين من قال: إن المراد جميع نساء زمانها، والذي راجحاً: القول الأول لحديث أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم: قال (حسبك من نساء العالمين مريم ابنة عمران، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد، وآسية امرأة فرعون)^(٢).

وذكر الفخر الرازي أن هذا الحديث دلّ على أن الأربعة أفضل من الكل، وأشار إلى ما أن عدا هذا القول فهو ترك لظاهر النص^(٣).

• وبعد بيان علو درجتها ومترلتها بدأ تعالى تأهيلها إلى تلك المحنة الكبرى، حيث خلق منها ولداً من غير أب، فخاطبتها الملائكة أن تكثر من العبادة والخشوع والركوع والسجود والدأب في العمل بقوله تعالى: ﴿يَمْرِيْمُ أَقْنِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِيْنَ﴾^(٤).

والقنوت: أصله طول القيام في الصلاة^(٤)، والقانت: المطيع الخاضع، وقوله: ﴿أَقْنِي﴾ قال الزجاج: أي اعبديه بالقول والعمل^(٥)، وذهب الحسن و قتادة: أي: اعبديه، وقال مجاهد وابن جريح والربيع:

(١) انظر: تفسير ابن جرير ٣/ ١٨٢، وتفسير ابن أبي حاتم ٢/ ٦٤٨، وتفسير البغوي ٣/ ٤٦٤، وتفسير ابن كثير ١/ ٥٤٣.

(٢) أخرجه الترمذي في الجامع، كتاب المناقب باب فضل خديجة رضي الله عنها ٥/ ٦٦١، وقال حديث صحيح.

(٣) انظر: التفسير الكبير ٨/ ٤٤، والبحر المحيط ٢/ ٤٥٦.

(٤) انظر المفردات في غريب القرآن، كتاب القاف: ٤١٣ مادة (قنت).

(٥) معاني القرآن للزجاج ١/ ٤١٠.

المراد: طول القيام في الصلاة وقال: ابن جبير: الطاعة أو الإخلاص^(١).
والواضح: أن ما ذهب إليه الزجاج يندرج ضمنه جميع المعاني،
وبخاصة أن الآية خَصَّصَتْ ذلك الأمر بتوجه العبادة لله وحده وهذا في
قوله: ﴿لِرَبِّكَ﴾.

• ثم أتى الأمر بالركوع والسجود بالتفصيل بقوله: ﴿وَأَسْجُدِي
وَأَذْكُرِي مَعَ الرَّكْعَيْنِ﴾، وإرشادها إلى صلاة الجماعة، وأن تفعل مثل فعلهم
وإن لم تصل معهم^(٢).

• ثم أكد تعالى نبوة نبيه محمد ﷺ. قال عز وجل: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ
نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَقْلَمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾^(٣)
فالإشارة بـ ﴿ذَلِكَ﴾ إلى جميع الأمور العجيبة والقصص الغريبة
التي قصّها الله تعالى.

والوحي هو: الإشارة السريعة الخفية، ويراد به: الكلمة الإلهية التي
تلقى إلى أنبياء الله تعالى وأوليائه^(٣).

وفي هذا إقامة الحجّة الدامغة لمنكري الرسالة المحمدية، حيث إنَّ
الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُمِّيٌّ لَا يَقْرَأُ أَنْخَبَارَ التَّوْرَةِ، وَإِنَّ أَهْلَهَا يُقْرُونَ
بذلك فَتَعَيَّنَ بالأولوية أن يكون علمه بذلك وحيٌّ من الله تعالى.

وفي موقع هذه الجملة بين أحداث القصص السابقة العديد من

الفوائد:

(١) انظر: تفسير ابن جرير ٣/١٨٣، وتفسير ابن أبي حاتم ٢/٦٤٨، وتفسير البغوي

٣/٤٦٤، وتفسير ابن كثير ١/٥٤٣.

(٢) انظر: المراجع السابقة.

(٣) انظر: المفردات في غريب القرآن: ٥١٥ كتاب الواو مادة (وحي).

١ - إثبات أن النبي ﷺ نبي يوحى إليه، حيث إن جميع ما روى هو من الأمور الغيبية على الرسول صلى الله عليه وسلم وقد علمها بالوحي لقوله: ﴿تُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾.

٢ - التأكيد على غرابة قصص تلك الأسرة (آل عمران) والأعاجيب التي أحاطت بقصة (عمران وزكريا ويحيى ومريم)، ثم التنويه خاصة على (كفالة مريم) عليها السلام، وما هو حادث بين المتنازعين من تدافعهم لكفالتها، وما ذاك إلا تأكيداً لاصطفائها عليها السلام.

* اللطيفة الثانية: البشارة الكبرى لمريم عليها السلام:

وبعد أن خاطبت الملائكة مريم عليها السلام، وبشرتها باصطفاء الله تعالى وتطهيره لها، وأمرتها بمزيد من العبادة والاستغراق في شكره، أضافت لها شرفاً آخر وهو تلك البشارة الكبرى.

﴿ إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ﴾ (١).

• ﴿ إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ ﴾.

(إذ) تُشير إلى شرف آخر علا بتلك الأسرة لتكون من المصطفين عند الله تعالى، والتقدير: واصطفى الله آل عمران إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك، والمراد بالملائكة جبريل عليه السلام، والبشارة أتت هنا على أصلها أي في الخير.

﴿ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ﴾ اختلف المفسرون في المراد بالكلمة هنا:

فقال: أي برسالة من الله وخير من عنده، وقيل: بمعنى (كُن) لأن

(١) سورة آل عمران آية / ٤٥.

الله تعالى خَلَقَهُ بها من غير مُسَبِّبات، وقيل: هي اسمٌ لعيسى سَمَّاه الله تعالى بها، وقيل: بولدٍ لا أبَ له^(١)، والمراد أن الملائكة بَشَّرَتْ مريمَ بأنَّه سيكون لها ولدٌ من غير زوج.

• ﴿أَسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾:

وهو آخرُ أنبياء بني إسرائيل اسمه (عيسى) ولقبه (المسيح) ويُكنى (ابن مريم)، و (عيسى) اسم أعجمي، ورد اسمه في العبرية (يشوع) وفي الإنجيل (يسوع) بالسین^(٢).

وفي سبب لقبه بالمسيح اختلاف بين المفسرين:

فقيل: مأخوذٌ من المسح لآتِه يمسحُ الأرضَ جميعاً، وقيل: لآتِه لا يمسحُ ذا عاهة إلاَّ وبرءَ بإذن الله، وقيل: لآتِه كان ممسوح الأخصيين، وقيل: لأنَّ الجمالَ مَسَحَهُ وقيل لآتِه مسحُ من الذنوب^(٣).

قوله: ﴿أَبْنُ مَرْيَمَ﴾: نسبة الله تعالى إلى (مريم) لإشعارها أنه سَيَخْلُقُ من غير أب.

* اللطيفة الثالثة: صفات عيسى عليه السلام:

• ثم ذكر تعالى صفات عيسى عليه السلام بقوله: ﴿وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ

وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ۗ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ۗ﴾ (٤٦)

(١) انظر: تفسير ابن جرير ١٨٥/٣.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ٨٩/٤.

(٣) انظر: تفسير ابن جرير ١٨٥/٣، وتفسير ابن كثير ٥٤٥/١ والجامع لأحكام القرآن ٨٩/٤.

• وقوله: ﴿وَجِيهًا﴾ الوجيه: الذي له منزلة رفيعة عند ذوي القدر والمعرفة^(١). والمراد أنه ﷺ كان ذا جاهةٍ ومنزلةٍ عاليةٍ وشرفٍ وكرامةٍ عند الله وعند البشر، فأما جاهته في الدنيا فبسبب النبوة، وما كان عليه من إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى، وأما جاهته في الآخرة فلحصول شفاعته وعُلوِّ درجته عند الله، ولذا وصفه تعالى بقوله: ﴿وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾^(٢).

• ثم وصفه تعالى بقوله: ﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ﴾ فالمهد: مضجع الصبي في رضاعه^(٣).

• والمراد: أنه ﷺ لم يكلم الناس إلا في هاتين الحالتين، فقد تكلم في المهد لبراءة أمه (مريم) عليها السلام حين رماها قومها بالفاحشة^(٤).

- واختلف المفسرون في كلام عيسى في المهد على أقوال:
- قيل: تكلم لحظة براءة أمه ثم لم يتكلم حتى بلغ مبلغ النطق.
- وقيل: كان يتكلم دائماً في المهد حتى بلغ.
- والأكثر على القول الأول^(٥). فهو حجة على نبوته ﷺ، وأبلغ في التحدي وخرق العادة.

(١) انظر: معاني القرآن للزجاج ٤١٢/١ ومعجم الصحاح ٣٢٤/٢ كتاب الواو باب الواو مع الجيم وما يثلثهما مادة (وجه).

(٢) تفسير ابن جرير ١٨٦/٣.

(٣) تفسير ابن جرير ١٨/٣، والجامع لأحكام القرآن ٩٠/٤.

(٤) قال تعالى: ﴿قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا﴾^(٢٧) يَا أَيُّهَا الْمَرْيَمُ إِنَّكَ عَلَىٰ آلَاتِنَا عَزِيزَةٌ ۗ إِذْ قَالُوا يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِمَا يُحْكُمُ الْمَلَأُ الْكِتَابَ ۗ وَخِذِي مِنَّا مَا يَشَاءُ ۚ إِنَّنَا نَعْلَمُ مَا تُخْتَفَىٰ ۗ ۝٢٨ ﴿٢٧﴾ يَا أَيُّهَا الْمَرْيَمُ إِنَّكَ عَلَىٰ آلَاتِنَا عَزِيزَةٌ ۗ إِذْ قَالُوا يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِمَا يُحْكُمُ الْمَلَأُ الْكِتَابَ ۗ وَخِذِي مِنَّا مَا يَشَاءُ ۚ إِنَّنَا نَعْلَمُ مَا تُخْتَفَىٰ ۗ ۝٢٨

سوء... سورة مريم من آية ٢٧ إلى ٣١.

(٥) انظر: تفسير ابن جرير ١٨٨/٣، ومعالم التنزيل ٤٦٦/١، والبحر المحييط ٤٦٢/٢، ولباب التأويل ٢٣٥/١.

• والمثبت في الصحيحين: عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة) ^(١) وذكر منهم عيسى ابن مريم.

• وأما قوله: ﴿وَكَهَلًا﴾ أي يكلم الناس في مرحلة الكهولة، وهي: مرحلة ما بين سن الشباب والشيخوخة وأولها سنُّ الثلاثين، وقيل: الذي تجاوز الثلاثين، وقيل: سنُّ الأربعين وآخرها الستين، ثم يكون سنُّ الكهولة ^(٢)، وقيل: الذي خطه الشيب.

والمراد: أن عيسى عليه السلام يكلم الناس في حالة الكهولة بالدعوة والرسالة، وهي الفترة التي يستحكم فيها العقل ويتنبأ فيها الأنبياء، وكان كلامه في المهد معجزة وفي الكهولة دعوة.

• قوله: ﴿وَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ أي من زمرة وعداد الأولياء والصالحين

(١) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿واذكر في الكتاب مريم﴾ وذكر في الحديث (صبي كان في زمن جريج، وصبي يرضع من أمه) انظر فتح الباري ٤٧٦/٦. وأخرجه مسلم في صحيحه في كتاب البر والصلة والآداب، باب تقديم لوالدين على التطوع بالصلاة على نحو ما أخرجه البخاري. انظر صحيح مسلم ١٠٦/١٦. وذكر البيهقي من حديث ابن عباس قول النبي صلى الله عليه وسلم: (تكلم أربعة وهم صغار: هذا، (يقصد صبي ما شطة امرأة فرعون) وشاهد يوسف، وصاحب جريج، وعيسى بن مريم) انظر: شعب الإيمان للبيهقي باب في شح المرء بدينه حديث رقم (١٦٣٦). وأخرجه الحاكم في المستدرک بالاسناد نفسه في كتاب التفسير، باب: شهادة ماشطة ابنة فرعون على ولدها ٤٩٦/٢، وقال حديث صحيح الاسناد ولم يخرجاه.

وهناك أقوال عدة للمفسرين في عدد المتكلمين في المهد. انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري كتاب أحاديث الأنبياء، باب (واذكر في الكتاب مريم) ٤٨٠/٦. والجامع لأحكام القرآن ٩٠/٤.

(٢) انظر: الدر المصون ٩٧/٢.

الذين أنعم الله عليهم وجعلهم من الأنبياء. مثل إبراهيم وإسحاق ويعقوب وموسى عليهم السّلام وغيرهم.

وقد ختم الله تعالى أوصاف عيسى بهذه الصفة حيث إنّها من أعظم المراتب وأشرف المقامات لأنّ المرء لا يسمى صالحاً إلا إذا كان متبعاً للنهج الأصلاح والطريق الأقوم في جميع أقواله وأفعاله، وذلك أكمل الدرجات وأعلاها وأشرفها.

* اللطيفة الرابعة: استبعاد مريم عليها السّلام لحدوث الولد:

﴿ قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ ﴾^(١).

• عَقَبَ تِلْكَ الْبَشَارَةَ خَاطَبَتِ مَرْيَمَ عَلَيْهَا السَّلَامُ (جبريل) حيث تمثل لها بشراً سوياً^(٢) مناجيةً الله تعالى بقولها: ﴿أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ؟﴾ والأسلوب استفهامي، ومعناها: من أين، وكيف يكون لي الولد؟، والحال أنّي لم أكن ذات زوج ولم يمسنني رجل؟ عن طريق الحلال أو الحرام، وكيف يكون ذلك الولد؟ أمن قبل زوج؟ أم يخلقه الله تعالى ابتداءً؟

(١) سورة آل عمران آية / ٤٧.

(٢) وفي سورة مريم ﴿وَأذْكَرُ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَأَتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِن كُنْتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىٰ هَٰئِلٍ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾﴾ سورة مريم: من آية ١٦ - ٢١.

وقد أتى استفهام (مريم) هنا على سبيل الاستبعاد والتعجب والاستنكار من حدوث الولد من غير أب، لا شكاً في قدرة الله، إذ ذاك من الأمور المستبعدة والمستحيلة، ولا تُوافق السننَ الجارية.

• فردّ عليها جبريل عليه السّلام بأمر من الله تعالى قائلاً: ﴿كَذَلِكَ

اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾.

والمراد: لا تتعجب ولا تستبعد، ولا تستنكر فإن الله تعالى كما يقدر على خلق الأشياء مرتبطة بأسبابها، فهو قادر أن يخلقها بغير مسبباتها، ومن ضمن ذلك هذا الخلق العجيب وهو خلق (الولد من غير أب).

• فهو قادر على خلق ما يشاء من الأمور الغريبة والعجبية وقت ما

يشاء لقوله: ﴿إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (٤٧).

* اللطيفة الخامسة: مستقبل عيسى عليه السّلام.

أخبر تعالى مريم عليها السّلام ما هو فاعل بهذا الولد - الذي بشرها

به - من الكرامة وعلو المترلة فقال تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ الْكِنُوبَ وَالْحِكْمَةَ

وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ (٤٨) وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي

أَخْلَقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ

الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخُرُونَ فِي

يُوتِيكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ (٤٩) وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ

التَّوْرَةِ وَلِأَحَدٍ لِّكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا

اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ (٥٠) إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ (٥١) (١)

(١) سورة آل عمران من آية / ٤٨ - ٥١.

• فقد أورد تعالى أموراً أربعة، معطوفاً بعضها على بعض بقوله:

﴿وَيَعْلَمُ الْكِنَبَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ (٤٨)

والذي عليه أكثر المفسرين. إن المراد بقوله: ﴿وَيَعْلَمُ الْكِنَبَ﴾ أي يتولى تعليمه الخط باليد والكتابة، وقيل: كان أحسن الناس خطاً في زمانه^(١)، والمراد بـ ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ أي: والسنة، وقيل: العلم وأحكام الشرائع وتهذيب الأخلاق، وقيل: العقل في الدين، قال الإمام الرازي: لأن كمال الإنسان في أن يعرف الحق لذاته والخير لأجل العمل به^(٢).

وَأَمَّا ﴿وَالتَّوْرَةَ﴾ فالمراد بها الذي أنزلت على (موسى عليه السلام) وأما ﴿وَالْإِنْجِيلَ﴾ فالمراد به إنجيل (عيسى) الذي أنزل عليه. ولم يكن المراد قبله، وهذا ضمن البشارة لمريم عليها السلام أن الله أخبرها بأنه سوف يوحى إلى ذلك المولود كتاباً يسمى (إنجيلاً) ويعلمه إياه قبل الإنزال^(٣).

• ثم بشر الله تعالى مريم بقوله: ﴿وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ وانتصب (رسولاً) على الحال^(٤).

والتقدير: ويبعثه رسولاً إلى بني إسرائيل، أو يكلمهم رسولاً، أو

(١) انظر: تفسير ابن جرير أ / ١٨٨، وتفسير ابن أبي حاتم ٢/٦٥٣.

(٢) انظر: التفسير الكبير ٨/٥٤، وتفسير ابن أبي حاتم ٢/٦٥٤، والبحر المحيط ٢/٤٦٣، وتفسير الخازن ١/٢٣٦، ومعالم التنزيل ٣/٤٦٧، والجامع لأحكام القرآن ٤/٩٣ وغيرها.

(٣) انظر: المراجع السابقة.

(٤) انظر: معاني القرآن للأخفش ١/٤٠٨، ومعاني القرآن للزجاج ١/٤١٣، وإعراب القرآن للنحاس ١/٣٧٩.

ويجعله رسولاً قائلاً لهم^(١): ﴿أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَاتٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي: بعلامة ومعجزة من ربكم تَحَقَّقَ قَوْلِي وَتَصَدَّقَ خَبْرِي وَيُحَقِّقُ بِهَا نُبُوتِي، فأكون بذلك بشيراً ونذيراً.

واختلف في زمن رسالته عليه السَّلام: فقيل: كان رسولاً في حال الصبا، وقيل: أتاه الوحي بعد البلوغ وهو ابن ثلاثين سنة، فكانت نبوته ثلاث سنين، وقيل: وثلاثة أشهر و ثلاثة أيام، ثم رفع إلى السماء^(٢).

• ثم فسّر تعالى هذه (الآية) بتعديد بعض المعجزات التي جرت على يد عيسى عليه السَّلام، وبذلك يكون المراد من لفظ (آية) للجنس لا للمفرد.. وهذه الآيات في قوله:

١ - ﴿أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا

بِإِذْنِ اللَّهِ ط

والمراد: أُصَوِّرُ وَأُقَدِّرُ^(٣) لكم شيئاً من الطين كمثل هيئة الطير، فالكاف وردت (للتشبيه)، قوله: ﴿فَأَنْفُخُ فِيهِ﴾ الضمير هنا يعود إلى ذلك الشيء الذي يُماثل هيئة الطير، أو إلى الخلق، أو إلى الطين، أو إلى الطير. وجميع المعاني تحمل المراد ﴿فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي فيصير طائراً حياً بأمر الله تعالى، فكان تسوية الطين والتنفخ من عيسى عليه السَّلام، وخلق الحياة من الله تعالى وفي هذا التعبير إشارة إلى خصوصية (الخلق والحياة) للذات الإلهية سبحانه وتعالى.

٢ - قوله: ﴿وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ﴾ والمراد: وأشفي

(١) انظر: تفسير ابن كثير ٥٤٦/١.

(٢) انظر: تفسير ابن جرير ١٩٢/٣، والبحر المحيط ٤٦٥/٢.

(٣) معاني القرآن للفراء ٤٦٦/١، والجامع لأحكام القرآن ٩٣/٤.

﴿الْأَكْمَهَ﴾: وهو الذي يولد أعمى، وقيل: من ولد أعمى ويكون مضموم العينين، وقيل: هو الذي يبصر بالنهار ولا يبصر بالليل، وقيل: هو الأعمى على الإطلاق، فيكون المراد بالكمه: العمى^(١).

أما البرص: فهو مرض معروف وهو بياض يعتري الجلد^(٢)، وحيث كان قوم موسى بارعون في الطب فأراهم تلك المعجزة في جنس علمهم. وقد كان عليه السّلام يداوي بدعائه والمسح بيده أمراضاً عدّة، ولكن خصّت هذين المرضين بالذكر، لأنّهما داءان معضلان لا يقدر على الإبراء منهما إلّا الله تعالى..

٣ - قوله: ﴿وَأَخِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ وكان إحياء عيسى للموتى بدعائه لله تعالى، فكان يدعو لهم، فيستجاب له^(٣).

وذكر بعض أئمة التفسير روايات عدة في كيفية إحيائه عليه السّلام للموتى^(٤). ولم أقف على صحتها.

٤ - قوله: ﴿وَأَنْبِئْكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾^(٥) وهذه المعجزة من جنس الإخبار عن الغيوب، ولا تكون إلّا بوحي من الله تعالى وهذا هو الفارق بين علم الأنبياء بالغيوب، وعلم سائر الكهنة والمنجمين الذين لا يستطيعون الوصول إلى

(١) انظر: معاني القرآن للزجاج ٤١٤/١، وتفسير ابن جرير ١٩١/٣ وتفسير ابن أبي حاتم ٦٥٥/٢.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ٩٤/٤.

(٣) المرجع السابق.

(٤) انظر: معالم التنزيل ٤٦٩/١، والبحر المحيط ٤٦٧/٢، والكشاف ١٩١/١ والتفسير الكبير ٥٧/٨.

الغيب إلا عن طريق بعض الأسباب المؤدية إلى علمه.

وقوله: ﴿وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ﴾ أي أخبركم وأعلمكم بما تأكلون مما لم أعاينه وأشاهده معكم، أو بما أكلتم البارحة من الطعام، ﴿وَمَا تَدْخُرُونَ﴾ أي ما تخبئونه منه، وقيل المراد: وأنبئكم بما تأكلون من المائدة التي أنزلها الله عليكم وما تدخرون منها، حيث إن بني إسرائيل طلبوا من عيسى عليه السلام أن يُنزل عليهم مائدةً من السماء، فأخذ الله تعالى عليهم العهد أن يأكلوا منها ولا يجئوا منها شيئاً فخالفوه، فكان عيسى عليه السلام يخبرهم بذلك^(١).

• ثم أخبر تعالى عن غاية تلك الخوارق الأربع بقوله:

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾^(٤١) أي لدلالة وعبرة لكم دالة على صدقي، أتى رسول الله إليكم - إن كنتم مصدقين بذلك - مقرين بتوحيد الله ورسالتي.

• ثم عطفت غايات^(٢) أخرى لبعثة عيسى عليه السلام بقوله:

• ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ﴾ أي: وجئتكم أيضاً مصدقاً لشرع التوراة التي نزلت على (موسى عليه السلام) لا منكرًا لها أو مخالفًا شيئاً من أحكامها، وإنما مُخَفِّفًا عنكم بعض ما شدد عليكم حكمه فيها، وهو الذي ذكر بقوله: ﴿وَلَا أُحِلُّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ أي بعض الطيبات التي حرمت على بني إسرائيل بظلمهم

(١) انظر: تفسير ابن أبي حاتم ٦٥٦/٢، وتفسير البغوي ٤٧٠/١.

(٢) معاني القرآن للأخفش ٤٠٨/١، ومعاني القرآن للفراء ٢١٦/١، ومعاني القرآن للزجاج ٤١٥/١ وإعراب القرآن للنحاس ٣٨٠/١.

وكثرة أسلتهم، فأحلها عيسى لهم، ومن ذلك تحريم بعض الحيوانات والطيور^(١).

• ثم أخبر تعالى. ما سيكون عليه عيسى عليه السَّلام — من منهجية كبقية الرسل، في قوله: ﴿وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ۝٥٠﴾ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ۝٥١﴾. فالمراد بالآية هنا هو: رفع شعار كل نبي مرسل بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ۝٥١﴾ وهذه أكبر علامة على نبوته وصدقه، وصحة رسالته، فلم يخالف من سبقه ومن سيأتي بعده، وقيل المراد بالآية هنا: الخوارق التي أتى بها عيسى، فتكون على سبيل (التكرار)^(٢). وإثما ذكرت مفردة لأنها جميعاً من جنس واحد في الدلالة على الرسالة التي تلزم تحقيق العبودية لله تعالى بطريقة لا اعوجاج فيه وهذا هو الصراط المستقيم.

(١) كما في قوله تعالى: ﴿فَيُظْمِرُ مِنَ الذَّيْتِ هَادُوا حَرَمًا عَلَيْهِمْ طَبَيْتِ أُحْلَتْ لَهُمْ وَيَصَدِّهِمْ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ۝١٦٠﴾ سورة النساء: ١٦٠. وقوله: ﴿وَعَلَى الذَّيْتِ هَادُوا حَرَمًا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ وَمِنَ الْبَقْرِ وَالْغَنَمِ حَرَمًا عَلَيْهِمْ شُحُومُهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوْ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَهُمْ بِغَيْرِهِمْ ۝١٤٦﴾ سورة الأنعام: ١٤٦.

والمراد: أن الله تعالى حرم على قوم موسى أكل كل ما له ظفر وهو: ما ليس منفرج الأصابع من البهائم والطيور، فحرم لحمه وشحمه وكل شيء منه، وترك البقر والغنم على التحليل، لم يحرم منها إلا الشحم الرقيق الذي يكسو الكرش والكلبي، وكل شحم غير مختلط بعظم أو على عظم، وأتى الاستثناء فيها على ما علق بالظهور من الشحوم، وكما حرم عليهم أكل (الحوايا) وهي: المراض التي تكون فيها الأمعاء (أو ما اختلط بعظم) أي حرم كل شحم خالط العظم، إلا ما حملت الظهر، فهو غير محرم. انظر: الجامع لأحكام القرآن ١٢٤/٧. وتفسير ابن كثير ٢٩٦/٢.

(٢) انظر: تفسير ابن جرير ١٩٧/٣، وتفسير ابن أبي حاتم ٦٠٧/٢.

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فلا عرو أن كتاب الله تعالى كتاب معطاء مبارك، يعطي الحكمة والموعظة، والمثل والعبرة فيه رحمة العالمين، وشفاء المتقين، فهو منارة التائه، ودليل الحائر، ونور القلوب والبصائر.

وبتوفيق من الله تعالى قُدر لي أن أعيش فترة من الزمن في ظلال هذا الكتاب العظيم

مع تلك الآيات التي أفردها الله تعالى شرفاً وكرماً لتلك الأسرة الشريفة الكريمة أسرة (آل عمران).

وقبل أن أُحيط قلبي عن هذه الظلال عنت لي بعض النتائج من هذا البحث والتي منها:

١- إن الاصطفاء مرتبة لا ينالها من الخلق إلا من اصطفاه الله تعالى بخلقه أو باختيار وحكمة من لدنه، كاصطفاء الملائكة الرسل وغيرهم من خلقه.

٢- إن من اصطفاه الله تعالى من خلقه لأبداً وأن يكون قد اصطفاه من الصفات الذميمة وجمله بالخصال الحميدة، فضلاً عن أن الرُّسل مصطفين لإبلاغ هذا الدين.

٣- إن شرف اصطفاء أسرة (آل عمران) يتجلى فيما كانت عليه تلك الأسرة من الدين الذي اصطفاه الله على جميع الأديان، ولما ظهر فيها من سلاله النبوة والصِّلاح التي توالدت بعضها من بعض.

- ٤- إنَّ الرِّجاءَ في الدُّعاءِ والتَّوسُّلِ بأَسْماءِ اللهِ تعالى وصفاته وانقطاع حبل الرجاء عمَّا عداه سبحانه لمن موجبات استجابة الدعوة.
- ٥- من موجبات استجابة الدُّعاءِ الاستشعار بعظمة قدرة الله تعالى على خرق العادة، وأنَّه لا يُعجزه شيءٌ في الأرض ولا في السماء، مع عدم التَّعدي في الطَّلَبِ، ومراعاة الوقت الأنسب له.
- ٦- إنَّ الله تعالى كما هو القادر على خلق الأشياء مرتبطةً بأسبابها فهو القادر على أن يخلقها بغير مسبباتها بقوله: (كن).
- ٧- إنَّ نعم الله تعالى لا بدَّ أن يتلقاها المؤمن بمزيد من الشكر والحمد لله تعالى.
- هذا وادعو الله تعالى القدير أن يسخر لهذا الكتاب العزيز من طلبة العلم من يخرج خبأه من الأسرار الإلهية في مختلف الأوجه.



المصادر والمراجع

حرف الألف

- ١- اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر: فهد بن عبد الرحمن بن سليمان الرومي، الطبعة: الأولى ١٤٠٧هـ.
- ٢- أسباب النزول: علي بن أحمد الواحدي النيسابوري، أبو الحسن، المتوفى عام (٤٦٨هـ) عالم الكتب - بيروت.
- ٣- إعراب القرآن: أحمد بن محمد بن اسماعيل النحاس، أبو جعفر، المتوفى عام (٣٣٨هـ)، تحقيق زهير غازي زاهد، الطبعة: الثالثة (١٤٠٩هـ) - عالم الكتب.
- ٤- الأعلام: خير الدين بن محمود بن محمد الزر كلي، المتوفى عام (١٣٩٦هـ) دار العلم للملايين - بيروت.
- ٥- إنباه الرواة على أنباه النحاة: علي بن يوسف القفطي، المتوفى عام (٦٤٦هـ)، طبعة: ١٣٦٩هـ، دار الكتب المصرية.
- ٦- أنوار التنزيل وأسرار التأويل: المسمى بتفسير البيضاوي، ناصر الدين عبد الله الشيرازي البيضاوي، أبو الخير، المتوفى عام (٦٨٥هـ) دار الفكر - بيروت.

حرف الباء

- ٧- البحر المحيط: محمد بن يوسف بن علي الشهير بأبي حيان الأندلسي، المتوفى عام (٧٥٤هـ) دار الفكر - بيروت.
- ٨- بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز: مجد الدين محمد ابن يعقوب الفيروز آبادي، المتوفى عام (٨١٧هـ)، تحقيق: محمد علي النجار، المكتبة العلمية - بيروت.

٩- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد جلال الدين السيوطي، المتوفى عام (٩١١ هـ) طبع بمصر، سنة ١٣٢٦ هـ .

حرف التاء

١٠- تاريخ بغداد: أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي، أبو بكر، المتوفى عام (٤٦٣ هـ) طبع بمصر ١٣٤٩ هـ.

١١- تذكرة الحفاظ: محمد بن أحمد بن عثمان شمس الدين الإمام الذهبي، المتوفى عام (٧٤٨ هـ) حيدر آباد، ١٣٣٣ - ١٣٣٤ هـ.

١٢- تفسير القرآن العظيم: الإمام عبد الرحمن بن محمد بن أبي حاتم، المتوفى عام (٣٢٧ هـ) تحقيق: أسعد محمد الطيب، الطبعة: الأولى ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م، مكتبة الباز - الرياض.

١٣- تفسير القرآن العظيم: إسماعيل بن عمر أبو الفداء الحافظ ابن كثير الدمشقي، المتوفى عام (٧٧٤ هـ) تخرّج الأحاديث وضبط الهوامش، حسين بن إبراهيم زهران - مكتبة الفيصلية - مكة المكرمة.

١٤- تفسير الطبري: محمد بن جرير بن يزيد الطبري، أبو جعفر، المتوفى عام (٣١٠ هـ) دار الفكر - بيروت.

١٥- التفسير الكبير: محمد بن عمر بن الحسن البكري، أبو عبد الله فخر الدين الرازي، المتوفى عام (٦٠٦ هـ)، الطبعة: الثالثة، دار إحياء التراث العربي - بيروت.

١٦- تفسير المراغي: أحمد بن مصطفى المراغي، المتوفى عام (١٣٧١ هـ) الطبعة: الثالثة، ١٣٩٤ م - دار الفكر، بيروت.

١٧- تفسير القرآن الحكيم: محمد رشيد رضا، المتوفى عام (١٣٥٤ هـ) دار المعرفة - بيروت.

١٨- تهذيب التهذيب: أحمد بن علي بن محمد الكناني، ابن حجر العسقلاني، المتوفى عام (٨٥٢هـ) طبعة: ١٣٢٥هـ - حيدر آباد.

حرف الجيم

١٩- الجامع الصحيح، سنن الترمذي: محمد بن عيسى بن سورة، أبو عيسى الترمذي، المتوفى عام (٢٧٩هـ) تحقيق أحمد شاكر، طبعة: الفيصلية - مكة.

٢٠- الجامع لأحكام القرآن: محمد بن أحمد بن فرح الأنصاري القرطبي، أبو عبد الله، المتوفى عام (٦٧١هـ) دار الفكر - بيروت.

حرف الدال

٢١- الدر المصون في علوم الكتاب المكنون: أحمد بن يوسف بن عبد الدايم الحلبي، شهاب الدين أبو العباس، المعروف بابن السمين، المتوفى عام (٧٥٦هـ)، تحقيق: علي محمد معوض وآخرون، دار الكتب العلمية - بيروت.

حرف الراء

٢٢- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني: محمود الألوسي البغدادي، شهاب الدين، المتوفى عام (١٢٧٠هـ) طبعة: ١٤٠٣هـ، دار الفكر - بيروت.

حرف الصاد

٢٣- صحيح مسلم بشرح النووي: مسلم بن الحجاج القشيري، أبو الحسن، المتوفى عام (٢٦١هـ) الطبعة: الأولى ١٤٣٧، مكتبة الفيصلية - مكة.

حرف الغين

٢٤- غاية النهاية في طبقات القراء: محمد بن محمد بن يوسف، أبو الخير

- شمس الدين ابن الجزري، المتوفى عام (٨٣٣هـ) طبعة: ١٣٥١ هـ - مصر.
- ٢٥- غرائب القرآن و رغائب الفرقان: الحسن بن محمد بن حسين النيسابوري نظام الدين، المتوفى عام (٨٥٠هـ) على هامش جامع البيان للطبري، طبعة: ١٣٩٨ هـ، دار الفكر - بيروت.

حرف الفاء

- ٢٦- فتح الباري شرح صحيح البخاري: أحمد بن علي بن محمد الكناني ابن حجر العسقلاني، المتوفى عام (٨٥٢هـ) دار المعرفة، بيروت.
- ٢٧- الفتح السماوي بتخريج أحاديث تفسير القاضي البيضاوي: زين الدين عبد الرؤوف المناوي، المتوفى عام (١٠٣١هـ) دراسة وتحقيق: أحمد مجتبي السلفي، الطبعة: الأولى: ١٤٠٩ هـ، دار العاصمة - الرياض.
- ٢٨- فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير: محمد بن علي بن محمد الشوكاني، المتوفى عام (١٢٥٠هـ) طبعة: ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م، دار الفكر - بيروت.

حرف القاف

- ٢٩- قصص الأنبياء: إسماعيل بن عمر بن كثير، أبو الفداء، المتوفى عام (٧٧٤هـ) الطبعة: الأولى محققة ومنقحة، ١٤٠٣ هـ.
- ٣٠- قصص الأنبياء: عبد الوهاب بن سيد أحمد النجار، المتوفى عام (١٣٦٠هـ) مؤسسة الحلبي وشركاؤه - القاهرة.
- ٣١- قصص القرآن: محمد أحمد جاد المولي، المتوفى عام (١٣٦٣هـ)، وآخرون، الطبعة: العاشرة، ١٣٨٩ هـ، المكتبة التجارية الكبرى - مصر.

حرف الكاف

- ٣٢- الكشف عن حقائق التزويل وعيون الأقاويل في وجوه

التأويل: جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي، أبو القاسم، المتوفى عام (٥٣٨هـ) دار المعرفة - بيروت.

حرف اللام

٣٣- لباب التأويل في معاني التنزيل، المسمى بتفسير الخازن: علي بن محمد بن ابراهيم البغدادي علاء الدين المعروف بالخازن، المتوفى عام (٧٤١هـ) دار المعرفة - بيروت.

حرف الميم

٣٤- المستدرك على الصحيحين: محمد بن محمد بن أحمد الحاكم النيسابوري، أبو عبد الله، المتوفى عام (٣٧٨هـ) دار المعرفة - بيروت

٣٥- معالم التنزيل في التفسير والتأويل: الحسين بن مسعود بن محمد الفراء البغوي، أبو محمد، المتوفى عام (٥١٠هـ) طبعة: ١٤٠٥هـ، دار الفكر - بيروت.

٣٦- معاني القرآن: سعيد بن مسعدة البلخي المجاشعي المعروف بالأخفش، أبو الحسن، المتوفى عام (٢١٥هـ)، دراسة وتحقيق: عبد الأمير محمد الورد، الطبعة: الأولى ١٤٠٥هـ، عالم الكتب - بيروت.

٣٧- معاني القرآن: يحيى بن زياد بن عبد الله الفراء، أبو زكريا، المتوفى عام (٢٠٧هـ) تحقيق: أحمد يوسف نجاتي وآخرون - دار السرور.

٣٨- معاني القرآن وإعرابه: إبراهيم بن السري بن سهل المعروف بالزجاج، أبو إسحاق، المتوفى عام (٣١١هـ) شرح وتحقيق: عبد الجليل شلبي، الطبعة: الأولى ١٤٠٨هـ، عالم الكتب - بيروت.

٣٩- معجم الصحاح: إسماعيل بن حماد الجوهري، أبو نصر توفى عام (٣٩٣هـ) تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، الطبعة: الثانية، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.

- ٤٠ - معجم المصباح المنير: أحمد بن محمد بن علي الفيومي، أبو العباس المتوفى عام (٧٧٠هـ) مطبعة: مصطفى الباي الحلبي - مصر.
- ٤١ - المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم: محمد فؤاد عبد الباقي، المتوفى عام (١٣٨٨هـ) طبعة: ١٩٨٤ م. المكتبة الإسلامية - استانبول.
- ٤٢ - المفردات في غريب القرآن: الحسين بن محمد المعروف بن المفضل المعروف بالراغب الأصفهاني، أبو القاسم، المتوفى عام (٥٠٢هـ) تحقيق محمد سيد كيلاني، مكتبة ومطبعة: الباي الحلبي - مصر.
- ٤٣ - مناهل العرفان في علوم القرآن: محمد عبد العظيم الزرقاني، المتوفى عام (١٣٦٧هـ) دار إحياء التراث العربي - بيروت
- ٤٤ - ميزان الاعتدال في نقد الرجال: محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي شمس الدين، أبو عبدالله، المتوفى عام (٧٤٨هـ)، طبعة: ١٣٢٥ هـ - مصر.

حرف النون

- ٤٥ - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة: يوسف بن تغري بردي الظاهري، أبو المحاسن، المتوفى عام (٨٧٤هـ) دار الكتب المصرية.
- ٤٦ - النهر الماد من البحر: محمد بن يوسف بن علي ابن حيان الأندلسي، أثير الدين أبو حيان، المتوفى عام (٧٤٥هـ) دار الفكر - بيروت.

* * *